سلاطين ومشايخ لحج

والنواحي المحمية

لحج والنواحي المحمية

حدودها : جنوباً ساحل البحر العربي، من باب المندب الى بلحاف بالقرب من التقاء الخطين الثامن والاربعين من الطول الشرقي والرابع عشر من العرض الشمالي . شرقاً حضرموت . غرباً البحر الاحمر . شمالاً البلاد التي يحكمها الامام يحيي . وقد قلقلت جيوشه بعض الحدود القديمة بينه وبين اصحاب الحماية .

مساحتها : نحو الفين وخمسمئة ميل مربع

سكانها : نحو ثلاثمئة الف نفس .

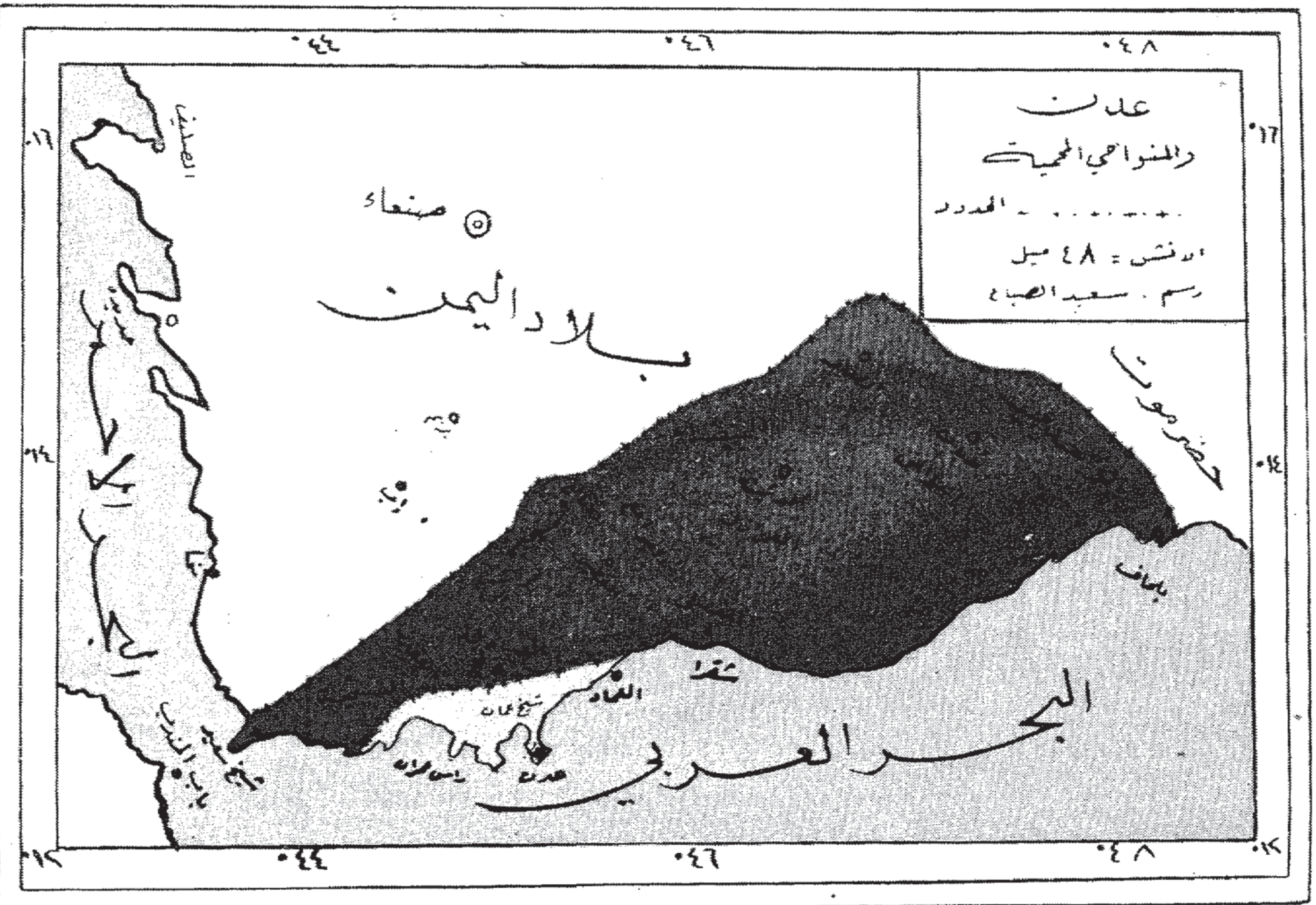
اهم قبائلها : العَبادِلة واليوافِع وآل فضل والعوالق والحواشب والصُبَّيحَة .

اهم مدنها : شقره والحوطه وبلحاف على البحر العربي . ولحج وأبين وأنصاب ومُسيمير وحُبان .

مذاهبها : السنّة ، شوافع وحنفيون . الشيعة ، جعفريون واسماعيليون وزيديون . وفي عدن اليهود والهندوس والنصارى . وفي القبائل داخل البلاد من لا يزالون على العادات الجاهلية لا يعرفون الاسلام .



سمو السلطان عبد الكريم فضل



عدن
والمنواحي المحمية
الحدود
الانش = ٤٨ ميل
رسم . سعيد الصباغ
بلاد اليمن
صنعاء
حضرموت
البحر العربي
البحر الأحمر
الصليف
باب المندب
عدن
شقرة
الشيخ عثمان
بلحاف

الثالوث المادي في عدن

المبدأ المرن في السياسة الانكليزية – درجات المرونة في البلاد العربية – ربقة تسر وربقة تخنق وربقة لا تضر – المعاهدات والمشاهرات والتدخلات – « انت تبغي الاستقلال، انت مستقل ، ونحن ندفع لك المال لتحافظ على استقلالك » – النياشين ومدافع الترحيب – بعثة فرنسية تزور عدن سنة ١٧٠٩ – عدن كما شاهدها المسيو لاروك – عدن اليوم – شعوب واديان – التواهي أي القسم الاوروبي – الثالوث المادي – البرق والنور والبخار – الاستعمار والاستثمار – الاوروبيون اعداء بعضهم لبعض – الدفاع عن عدن – المبدأ التجاري في الدفاع – المال ارخص من الرجال – من هو الكاسب، من يدفع المشاهرات ام من يقبضها .

قال المستر لويد جورج مرة ان المبدأ المرن في السياسة هو اصلح المبادىء لحل المشاكل الخارجيـة والاستعـمارية . لا تكن قاسياً فتكسر . ولكننا نظلم الانكليز اذا ظننا ان هذا المبدأ هو دائماً مبدؤهم في البلدان التي يحكمونها خارج الجزائر الانكليزية. اما في البلاد العربية فلا ريب ان المرونة هي غالباً روح سياستهم قولاً وعملاً . وقد يتخللها في الازمات اطلاق مدفع او في الاقل مناورة بحرية ، فتعود السياسة بعدئذٍ الى مجاريها الملتوية المائعة .

ان من ينعم النظر في بلاد العرب واحوالها الجغرافية والسياسيـة والدينية ، وفي تشتت امورها واختلاف نزعاتهـا ، يرى بعض الحكمة في خطة سياسية تمتد الى كل مكان دون ان تنقطع او يعتريهـا شيء من الضعف . مدها ، مطها ، من عدن فتصل الى صنعاء رقيقة لطيفة ، مطها من الكويت فتصل الى ما وراء الدهناء ، ومن شرقي الاردن

فتصل الى الجوف ، فتداعب اطرافها الوهابية وتتعلق بانامــل ابن سعود . مطها من الحديدة فتنعقد في صبيا ، ومن جدة فتلتوي وتدق ولا تنقطع حتى في ظلال الكعبة . ولكل مطة خطة ، ولكل يــد غط اسلوب خاص بصاحبها . في اللين ربقات لكل الرؤوس ، والسوائل تدخل في كل الكؤوس .

ان اجلى ما هنالك من مظاهر المبدأ المرن هو ما يصنع في دار الأعتماد بعدن من الربقات السياسية . هذه ربقة تسر ، وهذه ربقــة تخنق ، وتلك تؤلم ولا تضر ، وبينها كلها درجـــات في الضغط والارخاء ، في الربط والحل ، توجبها احوال اليمن الاسفل والعشائر القاطنة تلك الانحاء . وكيف لا وفي سلاطينها من لا يلبس غير الفوطة ، يستر بها عورته ، ومن هو في لبسه وفرش بيته واخلاقه وتهذيبــه من ارقى امراء العرب . اجل ، ان بين الاثنين درجات في الوحشية والتمدن لا يمكن الحاكم الذي لا يهمه من الامر غير الحكم والمصلحة ان يشملها كلها بنفوذه ، ويقيدها بحكمه ، الا اذا عمل بقاعدة لويد جورج السياسية .

ولهذه القاعدة مظاهر شتى ، اولها المعاهدات الولائية ، في المشاهرات المالية ، ومدافع الترحيب والتوديع لمن يجيء الى عدن من السلاطين او يسافر منها ، ثم الالقاب والنياشين ، ثم التحزب لبيت طامع بالملك على بيت مالك او عكس ذلك ، فالتدخل في السياسة المحلية عنـــد انتخاب او تعيين احد الحكام . واخيراً ، بل يصح ان يكون الاخير اولاً ، المحافظة على استقلال كل سلطان وامير ، عملاً برغبتهم وبمصلحة بريطانيا . نعم ، مــا من امير او سلطان او شيخ قبيلة الا يبغي الاستقلال التام ، ولا بأس اذا قيد بمشاهرات وبهدية كل عام . هذه

لعمري بلية العرب الكبرى التي توافق مصلحة الانكليز الكبرى . وكأني بهم يقولون للامير العربي: انت تبغي الاستقلال . انت مستقل نحن نعترف بذلك وندفع لك المال لتحافظ على استقلالك . نحن لا نبغي الا ما تبغيه وهذا عهد الولاء والحماية . ولكن في هذا العهد الربقة التي تخنق ، فيه البند المشهور : لا يحق للسلطان او الامير ان يتعاهد واحد زملائه او يبيع او ان يؤجر او يهب شيئاً من بلاده الى احد امراء العرب اوالاجانب او يمنح امتيازاًدون ان يستشيرويستأذن الحاكم في عدن .

هي سياسة التفريق [1] وسياسة الاستيلاء والاستئثار كذلك . فالانكليز وهم سادة عدن ونواحيها لا يبغون غيرهم من الاوروبيين هناك ، وامراء العرب يعاهدونهم على ذلك لقاء مشاهرات يقبضونها ذهباً وفضة وحماية عند اللزوم بما لدى السلطة من جند وسلاح . كلمة الانكليزي وعهده : سنساعدك يا حضرة الامير لتحفظ استقلالك فندفع عنك كل صائل من الداخل ومن الخارج .

اما الحماية فامرها عجيب وفيها غالباً تنعكس الآية ، فيحمي العربُ الانكليز لا الانكليز العرب . لذلك هم يستحقون في الاقل

---

(١) كانت سياسة حاكم عــدن الاول القائد هينس Capt. Haines مبنية على القاعدة : فرّق تسد . لان الحكومة او بالحري ادارة شركة الهند يومئذ لم تشأ ان تمده بما يحتاج من الجنود لحماية عدن فاذا قامت على الانكليز احدى القبائل كان الحاكم يثير قبيلة اخرى عليها . « حرض القبيلة الموالية على القبيلة المعادية فلا تضطر الى جنود بريطانيا » ...

« وانه وان كان هدر الدماء مما يؤسف له فمثل هذه السياسة تفيد الانكليز في عدن لانها توسع الثلمة بين القبائل » . هذا ما كتبته ادارة شركة الهند الى الحاكم هينس نقله الكرنل جاكوب في كتابه الانكليزي« ملوك العرب »

المشاهرات . ومنهم « اصدقاؤنا المخلصون المحبون » الذين حازوا من ملك انكلترا وامبراطور الهند لقباً [1] او رتبة ونيشاناً فتطلق لهم المدافع ترحيباً وتوديعاً في عدن .

هذه خطة الانكليز في عدن والنواحي التسع المحمية ، وهي تختلف عن خطتهم في عسير مثلاً بعض الاختلاف ولا تلتئم اساساً بخطتهم في العراق . وبين هذين الطرفين في القاعدة المرنة ، بين عدن وبغداد ، مظاهر اخرى في المرونة ستراها في الكويت وفي البحرين .

كانت عدن منذ خمس وثمانين سنة من املاك الدولة العثمانية اسما وفي حوزة سلطان لحج فعلاً ، وكانت قبل ذلك اي قبل ان تأسست سلطنة لحج في حكم ملك اليمن او امام صنعاء تفاخر المدن بمجدها والاساكل البحرية بتجارتها . فقد جاءها في سنة ١٧٠٩ م بعثة فرنسية تجارية تبغي التجارة بالبن ، يصحبها رجل اسمه لاروك ، كتب كتاباً صغيراً يصف فيه تلك الرحلة [2] . فعرّفنا هذا الاجنبي بعدن العربية في ذاك الزمان ، وبحاكمها الكريم الاخلاق الذي ارسل عندما ابصر مراكب الاجانب رجالاً من قبله يستقبلونهم ويرحبون بهم ، وخدامين يحملون اليهم الزاد والحلوى والمرطبات .

اقام الفرنسيون في عدن بضعة اسابيع شاهدوا فيها ما لا يشاهده السائح اليوم . قد كانت في تلك الايام عدن العرب والتوحيد ، بل

---

(١) النياشين البريطانيـــة التي تمنح الانكليز والاجانب في الشرق تنحصر برتبتين K. C. I. E. اي Knight Companion of the Indian Empire و K. C. S. I. اي Knight Companion of the Star of India

(٢) Voyage dans l'Arabie Heureuse par la Roque

عدن الشرق الصميم ، الرقيق الجانب ، الكريم الخلق ، العزيز الشأن . والفضل لكاتب تلك البعثة المسيو لاروك في وصف المدينة وصفاً تثبت جله صورة حفرها على النحاس رسام هولندي في ذاك الزمان . رأيت الصورة وقرأت الكتاب ، فقلت : اين ارميا ينثر الاشعار في ندب الديار ؟ اين سورك الذي كان يطوق الجزيرة يا عدن ؟ واين قصورك تفوق قصور ابن ذي يَجدَن ؟ واين حماماتك الجميلة المرصوفة بانواع الرخام ، المزدانة ببقية من عمد الاصنام ؟ واين مساجدك ذات القباب البيضاء والزرقاء ، والمآذن الدقيقة البناء ؟ واين آثار ادبائك وشعرائك ، ومن كان يمشي سامد الرأس تحت لوائك ؟ بل اين تلك اللغة اليوم من رطانات وطمطمانيات سرت من الشرق ومن الغرب اليها ؟ بل اين تلك الروح روح قحطان ، وتلك المكارم مكارم عدنان ، وذاك المظهر الشريف النقي مظهر الوحدة القومية ، تزينه الفصاحة والفروسية .

قلت ان عدن تلك الايام كانت عدن العرب والتوحيد . ولا اريد بالتوحيد الدين فقط بل القومية واللغة ايضاً . اما الوحدة القومية فكان قد تخللها شيء من خليط الهنود الذين هاجروا الى هذه الزاوية من البلاد العربية قبل ان احتلها الانكليز . وكان البنيان[1] في عدن يوم جاءتها البعثة الفرنسية ، والمسيو لاروك يذكرهم في كتابه ويقول انهم يهود المدينة اي التجار والصيارفة فيها . وكان العربي اليماني الزيدي يكرمهم ويتخذ له منهم الاخدان ، ويحسن اليهم كل الاحسان ، وهو لا يدري ان ابناءه في المستقبل سيكونون من خدامهم وخدام من جاءوا كذلك من المغرب .

(١) بنيا في لغتهم صاحب حانوت والبنيان فينيقيو الهند كثيرو الاسفار والاتجار .

اما عدن اليوم فمدينة الشرك هي لا مدينة التوحيــــد . مدينة عمومية لا عربية ولا شرقية ولا اوروبية ، مدينة التجـــارة والفحم والمضارب العسكرية . هي من الوجهة الحربية جبل طارق الشرق ، ومن الوجهة التجارية مركز استيراد وتوزيع مهم في البحر العربي ومن الوجهة البحرية هي مستودع فحم لبواخر العالم التي تجري بين الشرق والغرب ، وهي فوق ذلك وقبل كل ذلك مستودع رئيسي للبواخر الانكليزية في الطريق بين الجزر البريطانية والهنـــد . لا يفوقها سوى جبل طارق والسويس .

أن المدينة تقسم قسمين عدن الفحم والحصون والسياسة وتدعى التواهي ، وعدن التجارة والموبقات وتدعى كمب اي المعسكر . في الاولى وهي على الشاطىء دار الاعتماد والقنصليات وبيوت الضبـــاط والموظفين والانزال ، وبعض المخازن التي تباع فيهـــا بضائع الشرق والغرب الرديئة باسعار غالية . وفي الثانية وهي وراء الجبل على مسافة خمسة اميال ، في فم البركان ، او ما كان بركاناً في قديم الزمان ، وفيها اربعون الفاً من السكان من كل شعوب الارض والاديان . فيها المسلم الذي يصلي الى الله ، والبارسي الذي يصلي الى الشمس ، والبُنْيا الذي يصلي الى الاوثان ، والمسيحي مكرم الصور والصلبان ، والاسماعيلي صاحبُ صاحبِ الزمان ، واليهودي مسبّح الذهب الرنان . وفيها من يغسلون ويكفنون امواتهم ومن يحرقونهم ومن يحملونهم الى برج السكينة لتأكلهم النسور والعقبان .

كل هؤلاء يتاجرون ولا يتنافرون ويربحون ولا يفاخرون . اما بيوتهم فواحدة لا تُعرف أعربية هي ام هندية ام اوروبية ، واما اديانهم فهي كالاشجار والادغال في الغاب ، وهم في ظلالها لا يتغيرون

ولا يتطورون . الزاهرون والزاهرات والشائكون والشائكات . قلت ان يوم زار المسيو لاروك عدناً لم يكن فيها غير الاسلام وحفنة من اليهود والبُنيان . اما اليوم ففيها من المذاهب الدينية مئة مذهب ومذهب تعيش كلها في فم البركان ، بسلام وامان . وليس فيها غير واحد من المذاهب السياسية ، تصونه التقية ، ويعززه الدينار والقوة ، هو مذهب الاحتلال . والتاجر ، وطنياً كان او اجنبياً ، هو دائماً مع الحكومة . او بالحري لا يهمه من الحكومة غير الامن والنظام . ومهما قيل في حكومة عدن البريطانية فالامن والنظام ركنان فيها ثابتان .

تدعى عدن الثانية المعسكر لان فيها الثكنات وقسماً من جيش الاحتلال . وهي في حلقة من الجبال السحماء يكلل قننها حصون قديمة مهجورة لان الانكليز يستغنون عنها اليوم بالمراكب البحرية . اما اشهر ما فيها من الآثار ما تبقى من ظل مجدها الغابر فهي اسداد الماء[1] تلك الاسداد المبنية في مضيق متحدر بين جبلين ، بناءً متيناً محكماً ، محفوراً بعضها في الصخور . سد فوق سد ، يصب الواحد مياهه حين يمتلىء في السد تحته . حتى تفضي بعد امتلاء عدة اسداد الى الخزان الاخير القائم عند سفح الجبلين . ولكن هذه الاسداد وهي من اجمل الاعمال الهندسية في العالم ، لا تمتلىء لقلة الامطار الا مرة او مرتين كل بضع سنوات .

....

(١) تاريخ هذه الاسداد مجهول . فمن المؤرخين من يقول انها بنيت في القرن الخامس للمسيح ومنهم من يعود بها الى الف وخمسمائة سنة قبل المسيح . ومما لا يختلف في امرها انها كانت مردومة عند الاحتلال البريطاني فحفرت ورممت سنة ١٨٥٦ وانها تسع ثمانين مليون غالون من الماء .

وفي التواهي اي عدن السياسة ، دائرة اشغال هي اهم من كل ما ذكر هناك . وبين تلك الربى المكللة بالحصون الحديثة ، المتصلة بعضها ببعض بوساطة الانفاق، رابية لا علاقة لها مباشرة بالحروب او بالسياسة . رابية عامرة نيرة منيرة ، بيوتها كلها حديثة هندسة وبناءً ، ومهنةُ سكانها اهم من المهن الرسمية كلها . هي قرية قائمة بذاتها فيها المطعم والحانة والنادي واسباب اللهو والرياضة والراحة جميعها . واليها ومنها تمتد الاسلاك ، اسلاك السحر الحديث ، سحر العلم والعمل . من الشرق وجزر الشرق الكبيرة ، من استراليا والفيليبين ، من افريقيا واوروبا ، من قارات الارض تجري امواج السحر في اسلاك العلم والعمل . فتهمْهم وتطن تحت الماء في اعماق البحار ، وتبرق على صدر اليبس ، ونورها كامن في السلك ، والسلك في القماش ، والقماش في القار ، والقار في الحديد . هي انباء العالم ، انباء التجارة والاجتماع والسياسة ، يحملها البرق تحت الامواج فتصل الى عدن ، تلك الربوة المهمة فيها ، الى مركز البرق هناك . ثم تتوزع منه كما تتموج اليه امواجاً . فتربط الامم الشرقية بالغربية ، وتقضي على المسافات في المعاملات والمراسلات ، تحصرها في سلك نصفه يمتد من تلك الرابية شرقاً وجنوباً ، والنصف الآخر غرباً وشمالاً . وهذا السلك هو قوام الاتصال بين الشرق والغرب ، بل هو قوام التجارة وأحد اركان المدنية والعمران .

لا شك ان في العالم مراكز برق اكبر من تلك التي في عدن . ولكن ليس في العالم على ما اظن اهم منها . اقطع ذاك السلك ، اوقف العمل على تلك الرابية ، اسكت المئة آلة التي تدندن ليل نهار هناك ، فتعود البحار الى ظلمها القديم واستبدادها في المسافات ، وتمسي قارات

العالم القديم كلها ، آسيا واوروبا وافريقيا واستراليا ، وكل منهـا في عزلة الجزر او الجبال ، لا صلة بينها غير تلك التي يحملها الرسول او البخار .

اجل،ان شركة التلغراف في عدن لاحدى ايدي المدنية والعمران. وهناك في تلك الاهرام والركام ، على شاطىء البحر يدٌ سوداءولكنها في العمران بيضاء ، هي يد الفحم والبخار . وفوقها وفوق المدينة نور وهاج ينـــير الميناء ليلاً ويدير حركة البواخر والمراكب بانواره الملونة . هوذا ثالوث عدن المادي . عرش البرق على هـــذه الرابية ، وعرش النور على جارتها ، وعرش البخار على الشاطىء فوق ركام الفحم العالية . ان فيها كلها حياة يكبر الغربيون اسبابها ولا يزدريهـــا باطناً الشرقيون . وكيف يزدرونها وهي في بلادهم تحيي التجـــارة والبحارة ! ليطفأ نور تلك المنارة ، منارة عدن ، فتصطدم وتغرق المراكب في البحر . لتقفل ابواب شركات الفحم فتقف وتبطل حركة البواخر بين الشرق والغرب ، وتنقطع اذ ذاك هذه الصلة الحديثة بين القارات كلها .

لا بد اذن من البرق والنور والبخار في عدن . ومن يد تديرهـــا وتحافظ عليها وتحميها . واليد اليوم بريطانية . وقد تكون غداً يابانية او عربية . لكن الغد لله . يهمنا اليوم ويهم العالم أجمع ان تبقى هذه المحطة الكبيرة ، هذه الصلة المهمة ، في كنف الامن والنظام . ولو كان فيَّ ذرة من اليقين ان الامام يحيى يستطيع ان يقوم مقام البريطانيين لما فضلت احداً وطنياً كان او اجنبياً عليـــه . اني آسف ان الروح العربية تقلصت في عدن واضمحلت، وانه ليحزنني ويحزنك ايها القارىء العربي ، وقـــد اشرفنا على شيء من مجد غابرها ، ان نراها في يد

الاجانب . ولكننا في زمان سيده المال ، وحاكمه الاقتصاد ، ومديره الاول العلم . وليس عندنا من الثلاثة ما يؤهلنا اليوم لوظيفة صغيرة في معمل هذا الزمان الاكبر .

لنعدل حتى في انفسنا . لنقل الحق ولو كان علينا . ان عدناً محطة في طريق العالم ، وان للعالم كله مصلحة فيها . مهما استأثر الانكليز اذن فهم ولا ريب قائمون ببعض الواجب عليهم . وان العرب انفسهم لينتفعون بحكم فيه الامن والنظام . على اننا نبغي من الانكليز اكثر مما يشاهده السائح في اليوم الاول من اقامته في عدن . نبغي منهم العدل الذي اشتهروا بحبه وبتعزيزه في بلادهم . نبغي منهم الانصاف الذي هو من مزايا الشعب السكسوني . نبغي منهم الاهتمام لما فيه تعمير البلد وصحة اهله في اجسامهم وعقولهم — المحافظة على شيء من الروح العربية — مدارس تعلم الناشئة لغتهم وآداب بلادهم — ماءً يصلح للشرب(١) . مضى على الانكليز في عدن خمس وثمانون سنة وهم لا يزالون يستخدمون الانسان والقربة لرش الاسواق .

قلت الانصاف ، وهاك مثالاً واحداً من آفاته . في عدن صيارفة وتجار عديدون يتاجرون بالاوراق المالية والنقود ولكن ليس فيها غير مصرف واحد هو فرع لمصرف الهند — البريطاني — المشهور . وهذا المصرف لانه الوحيد يستبد بالتجار استبداداً يعرقل التجارة

---

(١) المرافق في عدن لا تزال من الطراز القديم . والماء وهو مالح يجر من بئر في الشيخ عثمان ويوزع ببراميل تجرها الجمال . والطرق وهي دائماً في حاجة الى الاصلاح والانارة لا تزال على الطريقة القديمة . اما عذر الحكومة في ذلك كله فقلة المال .

هارولد جاكوب في كتابه « ملوك العرب »

ويضعف اسبابها . قد شكا كثيرون منهم الامر الى القناصل علّ مصرفاً اميركياً او فرنسياً او ايطالياً يفتح له فرعاً هناك فيخفف بالمناظرة استبداد واستئثار مصرف الهند . ولكن دون ذلك صعوبات ظاهرة وخفية ، ولحكومة عدن ولا ريب يد فيها .

اني لا ارى عذراً لمثل هذا الاستئثار الذي يعد صغارة في الاستعمار . بيد ان من العدل الا افرد الانكليز بالذنب واخصّهم دون سواهم بالتثريب . فالفرنسيون في جيبوتي مثلاً والايطاليون في مصوع هم من هذا القبيل مثل الانكليز في عدن . قد لا تجد تاجراً واحداً انكليزياً او ايطالياً في جيبوتي فكيف بمصرف غير فرنسي ؟ وقد لا تجد عاملاً فرنسياً او انكليزياً في مصوع فكيف بمصرف غير ايطالي ؟ ان هذه الروح الاوروبية الصغيرة في التجارة والاستعمار ، وان شئت فقل روح الاستئثار والاحتكار ، لمن اول اسباب الانحطاط الاوروبي في الشرق . فاذا كنت لا تطيق اخاك الاوروبي مزاحماً ، اذا كنت تضن عليه بفرصة يغتنمها فيستثمرها مثلك في بلاد غريبة ، فكيف تطيق الوطني او تحسن به الظن في الاقل؟ وباي حق ، والحال هذه ، تطلب منه الثقة والاحترام ؟ اني مخلص لــك ايها الاخ الاوروبي في ما اقول . قد يطيعك الشرقي ويخدمك ، ويكون لك جاسوساً على اخيه ، ولكنه في قلبه يكرهك ويحتقرك . وليس هو وحده المسؤول الملوم . عد الى نفسك ايها الاخ الاوروبي وفكر في ما اقول . اني ابغي لك ولابن الشرق خيراً في بلاده مشتركاً ، متبادلاً ، متساوياً .

لكن روحك ايها المستعمر لا تعجب المنصفين من الامتين . كأني اسمعك تقول : جئنا هذه البلاد وفتحناها وعمرناها وليس لغيرنا الحق

ان ينتفع منها وفيها انتفاعنا . هذه هي روح الاستعمار الاوروبي في عدن وفي جيبوتي وفي مصوع ، وقل ان شئت في الهند وفي الجزائر وفي طرابلس الغرب وهي الروح التي تفسد على الشرقي اهم مظـــاهر الحكم الغربي اي الادارة والنظام فحبذا الحكمة في اطماعهم تلطفها ، وحبذا الحصافة في استئثارهم تخفف من عواقبه الوخيمة . لست ممن يغمضون عيونهم ويضربون ، ولا ممن يولون المغرب وجوههم ويكرهون . ولكني اهاب على الاوروبيين من يوم يعم فيه البلاء فينهض الشرق — الشرق العاقل والشرق المجنون ، الشرق المتعصب والشرق المتساهل — ينهض نهضة واحدة على المدنية الاوروبية كلها ، بحذافيرها ، لانه لا يرى فيها غير سيئاتها ، غير الشره والشهوات ، والاستئثار والمنكرات . بودي قبـــل ان تأزف تلك الساعة ان يعدل الاوروبي ويعقل الشرقي ، فيتفاهم الاثنان ويأتلفان ، وينتفع الواحد من الآخر .

قلت ان الامن والنظام في عدن ركنان ثابتان ، ولا شك ان البريطانيين قد بذلوا في سبيلهما قسطاً من القوة جسيماً ومثله من السياسة والدهاء ، ثم بتضحيات من مال ورجال ليس اكرم منهم فيها . بيد ان احتلالهم عدن واستيلاءهم على النواحي المجاورة لها لا يخلوان من الحيف والخداع .

قد علموا عند احتلالهم عدن بانه يجب لحمايتها جيش كبير يقيم فيها . ولكن ادارة شركة الهند يومئذ فضلت تلك الخطة التي تقدم الكلام عليها . ثم عندما تسلمت الحكومة البريطانية زمـام الامور في الهند ، استخدمت بعض القوة في تأييد مركزها في عدن ، ورأت انها تحتاج الى قوات بحرية وبرية ترابط فيها . وقـد تعجز مع ذلك عن الحماية اذا

لم يكن لعدن منطقة كالدرع تصونها من تعديات العرب الذين يحيقون بها من جهات ثلاث من الشرق والغرب والشمال ، ويحاربون كالقرود ، ويعتصمون بالجبـال . فاتخذت لذلك سياسة لين تدعمه الشدة ، وباشرت المفاوضات ، وابتاعت من الاراضي ما لم تستطع الاستيلاء عليه بالسياسة ولم تشأ اخذه بالقوة . فتم لعدن الدرع الذي تحتاجه وهو خط يمتد من الغدير على البحر غرباً الى دار الامير شمالاً ، ومنها شرقاً بشمال الى ام العُمُد بحراً . ثم اقامـت في هـذه المنطقة البريطانية الاستحكامات العسكرية ، ونقلت اليهـا الجنود من الهند ، وظلت مع ذلك في خطر دائم من العرب المحيقين بها ، من الصُبَيْحة والحواشب واليوافع وغيرهم .

فما العمل اذن ؟ قد يكلفنا الدفاع عن عدن الاف الجنيهـات يومياً اذا فرضنا انه يتعين علينا ان نقيم فيهـا دائماً عشرة آلاف جندي . وقد يكلفنا الدفاع عن المنطقة التي ظنناها درعاً منيعاً الاف اخر . ولكني اقف عنـد حدٍ في النفقات لا يتجاوز الا القليل من هـذه القيمـة ، كل يوم ، وافترض ان الحكومة البريطانية تستطيع بذلك ان تدوخ العربان وتؤدبهم ، وتستولي على بلادهـم فتدخلها في منطقة الاحتـلال . ولكنها تضطر عندئذ ان تضاعف قواتها العسكرية ، فتتضاعف النفقات ، لتدفع عن هـذه المقاطعات غارات عرب الجبال من زيود وشوافع شرقاً شمالاً . النتيجة : اننا كلما توغلنا في اليمن زادت النفقات والاخطـار . فالولاء اذن خير من العداء . على ان لا بد لنـا من قوة نرهب بهـا اولاً من نبغي ولاءه . فاذا كسرنا هذا الامير ، ونكلنا بذاك الشيخ ، ثم صافحنا ووالينا وبذلنا المال مشاهرات ، كان لنـا من الصداقة والاذعان

ما نريد .

وكذلك كان . مرت على عدن بعد احتلالها سنون فادت فيها انكلترا بكثير من المال والرجال . حاربت القبائل ثم عاهدت امراءهم واحداً واحداً . ضربتهم ، وفرقتهم ، واقامت الحدود بينهم ، ورفعتهم الى مقام السلاطين ، واشترت صداقتهم بالمشاهرات المالية . وما هي تلك المشاهرات بالنسبة الى نفقات الحرب والدفاع ؟

اليك جدول الحساب الاخر . في المنطقة المحمية تسع ولايات او امارات او سلطنات . فلو فرضنا ان كل امير يتقاضى الانكليز اربعمئة روبية كل شهر وهي اكبر المشاهرات ، اذا استثنينا مشاهرة سلطان لحج ، وان في كل امارة زعماء ، رجال الامير او اعداءه ، يتقاضونهم كذلك مثل هذه القيمة ، فيبلغ ما تدفعه عن ولاء الامراء التسعة ورجالهم سبعة او ثمانية آلاف روبية كل شهر اي خمسمئة ليرة انكليزية . واذا فرضنا ان في الافتراضين ، اي حساب الجيش وحساب الامراء ، بعض المبالغة فهي دون الحقيقة لا فوقها . ان النسبة بين الاثنين في كل حال لا تتغير . عشرون الف جندي للدفاع يقوم مقامهم عشرة امراء او سلاطين . هذه هي النسبة الاساسية . مَن الكاسب اذن ؟ أمَن يدفع المشاهرات أم من يقبضها ؟

انها من الانكليز سياسة العزم ، تتلوها سياسة الحكمة اي المبدأ المرن المقرون بالقاعدة التجارية في الاشغال . فهم لا مراء تجار لا يبارون ، كما انهم ساسة محنكون . فاذا خيروا بين نفقات الجيش والمشاهرات يختارون الثانية ولا غرو . انها ، اذا اعتبرنا

مصلحة بريطانيا اولاً ثم العالم الذي تهمه محطة المواصلات البرقية والبخارية ، لكانت النتيجة صفقة غانمة . اما اذا اعتبرنا مصلحة العرب فيعترينا الاسف والغم لانهم الخاسرون في كل حال ،الخاسرون وان تضاعفت الاموال .

من اجل شركة الهند

المسئلة الشرقية – انكلترا تدافع عن الدولة العلية – خوفها من محمد علي باشا – معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ – اخراج ابراهيم باشا من سوريا ومن اليمن – شركة الهند مستودع الفحم – عدن – احتلالها سنة ١٨٣٩ – معاهدة الانكليز مع سلطان لحج – بنودها – المبدأ المرن – « انت صاحب الامر ونحن نتولى تنفيذه عنك » – توسيع حدود عدن – كيف اشتروا الشيخ عثمان – طريقة لا يجللها الانكليز في بلادهم – والشيخ عثمان لا تكفي – توسيع المنطقة المحتلة – كيد وقيد ومشاهرة .

لا يزال اولو العلم يذكرون ، برغم عاديات الحرب الكبرى وذاريات مؤتمر لوزان، تلك المسئلة المشؤومة في سياسة اوروبا والشرق الادنى التي تعثر في اذيالها اكبر السياسيين ، بل تحطمت في طواحينها اكبر الاحلام ، وأفسدت في ظلالها احسن المقاصد والنيات ، فكان انتفاع كل امة منها وبسببها بالنسبة الى مـا افادت به من الشرف والوجدان . الا وهي المسئلة الشرقية . ولا يزال اولو العلم والانصاف يذكرون كذلك ، برغم انقلابات كان للدهر فيهـا اليد الكبرى – قلت الدهر واريد الحوادث التي تسيطر على الرجـال والامم – وبرغم صيحات الهند التي اختلطت فيهـا اصوات « الخلافة » باصوات الـ « صوارج » (١) وبرغم تهاليل في انقره والاستانة ، ومناجزات في دوائر السياسة يكابر الديك « الغالي » فيهـا الاسد البريطاني ، ان

(٢) صوارج كلمة هندية يراد بها الاستقلال الداخلي او ما يدعى بالانكليزية Home Rule .

بريطانيا في مقدمة الدول واحياناً وحدها كانت تدافع دائماً عن سلامة الدولة العثمانية . ولم يكن دفاعها لينحصر في الكلمة المنشورة والمقولة بل كان يتجاوزها الى السيف والمدفع والاموال . بيد انه لم يكن مجاناً لوجه الله .

ليس القصد من هذه الكلمة ان اجدد ذكر تلك المسألة السياسية الخطيرة التي يظن الناس ان قد حل عُقَدها مؤتمر لوزان . وانما قصدي ان اعود بالقارىء الى تسعين سنة مضت فاقص عليه قصة تتعلق بعدن وبشركة الهند الشرقية ، وبدفاع بريطانيا عن الدولة العثمانية .

من الحقائق البارزة التي كانت تشغل الدولة وبريطانيا في تلك الايام ان محمد علي باشا بوساطة ابنه ابراهيم كان قد استولى على سوريا واحتل من البلاد العربية عسيراً وتهامة وجزءاً من اليمن . فسعت الدولة ان تخرجه من هذه الاقطار فلم تفلح . ورأت بريطانيا ان مطامع محمد علي باشا في البلاد العربية لا تلتئم مع مصالحها ، ولا سيما ما كان يتعلق منها بالهند وبشركة الهند الشرقية ، فامتشقت الحسام ، او بالحري حركت الاسطول دفاعاً عن الدولة ، وكانت هي العامل الاكبر في اخراج المصريين من البلاد السورية وفي انسحابهم من اليمن .

ثم عقد مؤتمر لندن فأبرمت في ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ معاهدة كادت تفضي الى الحرب بين فرنسا وبريطانيا ، أعيدت بموجبها سوريا الى الدولة العلية واثبت محمد علي في ولاية مصر . ولكان قضي على محمد علي في مصر كذلك لو فازت في ذاك المؤتمر السياسة الفرنسية التي كانت تخشى مقاصد الانكليز الخفية . لم تكن تلك المقاصد

يومئذ غيرها اليوم، وقد كشف الزمان عنها الحجاب ، وحققت بعضها الحوادث . فها قد انفتحت طريق البر من مصر الى سوريا ، فالعراق ، فالهند .

اما الطريق التي كانت تستوجب الاهتمام مباشرة فهي طريق البحر . وقد كانت بريطانيا في تلك الايام ، ايام البخار الاولى ، تفتش عن مكان في البحر الاحمر او البحر العربي يصلح لان يكون مستودعاً للفحم لتموين البواخر في طريقها الى الهند ومنها . فرأى رجال شركة الهند الشرقية ان عدن اصلح مكان لهذه الغاية ، وظلوا عشرين سنة يحومون عليها ويسعون بالمعاهدات وبالسياسة ان يرفعوا فوق قلاعها العلم البريطاني . وكان ابراهيم باشا وهو في تهامة يبغيها كذلك ويخابر سلطان لحج بخصوصها. أوجس الانكليز خوفاً من ابراهيم فاقترنت مصلحتهم بمصلحة العثمانيين .

كتب رئيس الوزارة البريطانية يومئذ اللورد بالمرستون الى محمد علي باشا سنة ١٨٣٨ يقول ان لا حق له في البلاد العربية فيجب ان سحب جنوده منها . ثم عقد معاهدة مع الدولة تخول الانكليز الاتجار في الممالك العثمانية، وطلب منها عدن لتكون لهم مركزاً تجارياً في تلك الانحاء . على انهم كانوا يبغونها مستودعاً للفحم كما قلت . وما هي اهميتها للدولة في كلا الحالين ؟ عدن ، اين هي عدن ؟ وراء ثلاثة بحار ، في آخر البلاد العربية ، تبعد الوف الاميال عن الاستانة ، ولا سيادة حقيقية للدولة فيها .

منح السلطان عبد المجيد الفرمان . ولكن شركة الهند الشرقية كانت تعلم ان السيادة الحقيقية في عدن هي للعرب وان الفرمان وحده لا يكفي . فينبغي للاحتلال حادث يتذرعون به . كانت

المراكب البريطانية تمر في تلك الايام بعدن للمتاجرة فحدث ذات يوم ان مركباً شراعياً غرق هناك فسطا عليه العرب ونهبوه فبعثت ادارة الشركة القبطان هينس على مركب حربي في ثلاثمئة من الجنود يطلب التعويض ، فجـــاء الى عدن وفاوض السلطان ، سلطان لحج ، الذي كان مقيماً فيهـــا ، فأبى سموه ، فاحتج الانكليزي بالفرمان ، فاستشاط السلطان العربي غيظاً . ومن هو سلطان العثمانيين ؟ وهل يهب بلاداً ليست له ؟

ضرب القبطان هينس عدن في ١٩ ك ٢ سنة ١٨٣٩ فأمر السلطان الحامية بالدفاع ، فحدث قتـــال لم يدم طويلا . سلم العرب ، ولكن سلطان لحج في ازدرائه الخط الهمايوني ومقاومة الفاتحين تمكن من عقد معاهدة معهم حفظت له بعض حقوقه ، وقطع الانكليز معه عهداً بان يدفعوا له تعويضاً عن الاحتلال ستة الاف ريال مسانهة ، كانت بداءة تلك المشاهرات التي تبلغ اليوم نحو مئة الف روبية .

احتل الانكليز باسم شركة الهند الشرقية قسماً من عدن يدعى التواهي ولم تكن يومئـذ غير اعشاش لصيادي السمك ، لا يتجاوز سكانها الستمائة نفساً . وظل السلطان مقيماً فيهـــا مدة قصيرة ، ثم تراخت العلائق بين السلطان ووكيل بريطانيا ، فحدث قتـــال ثان كان للانكليز رغبة فيه – يقول عرب عدن : كاد الانكليز كيدهم المعروف – فانتصروا على العبادلة اي قبيلة السلطان واخرجوهم من التواهي واستولوا على عدن استيلاء تاماً . منذ ذاك الحين لم يأذنوا لسلطانهم ان يكون له في عدن بيت ولو صغيراً . ثم جددت المعاهدة التي من شروطها :

* ان يعترف السلطان بسيادة الانكليز ويقبل حمايتهم في مملكته .

* ان تكون البلاد مستقلة في داخلها استقلالاً تاماً .

* ان تكون المقابلات بين العرب والسلطان رأساً دون تدخل الانكليز . « قد كان هذا التدخل احد اسباب الخلاف بين الفريقين ».

* ان يكون له الحق بان يصدر ما شاء من القوانين في بلاده .

* ان لا يعقد معاهدات مع الاجانب (امراء العرب لا يعدون من الاجانب) [1] .

* ان يكون له راية خاصة وجنـــد وحق بمنح الالقاب والرتب .

* ان تكون بوابة عدن الحدود بين المتعاهدين وان يكون ما بعدها بما فيها بلدة الشيخ عثمان من املاك سلطنة لحج .

* ان لا يجوز لاجنبي التملك في لحج او الدخول اليها بدون اذن من السلطان **تعطيه الحكومة البريطانية** .

الخط تحت الكلمات الاخيرة مني لالفت النظر اليه خصوصاً . تأملها ترى ان فيها مثالاً للقاعدة المرنة في السياسة . لم يقل الانكليز : بدون اذن تعطيه الحكومة البريطانية ، وهي حقيقة الحـــال ، لانهم يتحاشوا ان يمسوا كرامة السلطان . فمطوا البند ليبرر السيادتين ويرضي الفريقين . انت يا صاحب السمو صاحب الامر . ولكننا نحن خدامك نتولى امره ، نتوكل عنك في اعطاء الاذن .

---

(١) قد تدرجوا من هذه القاعدة الى قاعدة أعم ، فصار الامـــير العربي لا يستطيع ان يعقد مع امير عربي آخر معاهدة دون ان يستشير ويستأذن حكومة « جلالة الملك » .

وهو للآن كذلك . اذا وصل السائح الى عدن وشاء زيارة سلطان لحج يتحتم عليه ان يقوم بواجبين : اولهما ان يكتب كتاباً الى سموه يستأذن بالزيارة والثاني ان يطلب الاذن من دار الاعتماد . فــاذا كان هناك من مانع يعلمون سمــوه بذلك ويرفضون الاذن عنـه . والا فيمنحونه ويحددون مداه ومدته ، فلا يتجاوز حامله حدود لحج ولا يقيم فيها غير ايام معدودة .

اشرت في الفصل السابق الى صعوبة الدفــاع عن عدن اذا كانت وحدها البلدة المحتلة ما لم تخصها الحكومة بفيلق وبعض المدرعات واذ ذاك تضطرها الحاجة الى مكان يقيم الجنود فيه . وبكلمة بسيطة ضاقت دونهم عدن فتطلعوا الى بضعة اميال شمالاً وفيها بلدة الشيخ عثمان ، فطلبوها من السلطان فرفض طلبهم . قـالوا : نشتريها ، فقال : لا .

لجأت اذ ذاك دار الاعتماد الى وسائل لا تحللها الحكومة البريطانية في بلادها . كان للسلطان شقيق يحب المال اكثر من حبه الشيخ عثمان وكانت لهذا العبدلي يد في ادارة امور السلطنـة ، معززة بثقة اخيـه . فتقرب الانكليز منـه وتم سنة ١٨٨٢ الاتفـاق بينهم وبينه سراً على التنازل عن الشيخ عثمان مقابـل مبلغ قدره عشرون الف ريال ، (اربعون الف روبية) اي الفان وخمسمئة ذهب انكليزي . فامضى صك البيع بالنيابة عن اخيه السلطان ، فعده الانكليز صكاً شرعياً وحددوا بموجبه حدودهم التي شملت تلك القرية وهي على مسافة عشرة اميال من عدن .

اما السلطان فلما علم بالامر طرد اخاه من البلاد وصادر املاكه وحرمه حقوقه في الاسرة المالكة . ولكن ذلك لم يؤثر في خطـــة الانكليز وسياستهم . دخلوا الشيخ عثمان واقاموا فيهـــا حامية قوية لم

يستطع السلطان ولا خلفاؤه ان يقاوموها. ولم يكن احتجاجهم الدائم على شرعية البيع ليجدي نفعاً ، فرضوا بعد مدة بقسمة الجبار فيهم ، وعقدوا معاهدة جديدة مع الانكليز قبلوا فيها ان تكون دار الامير ، وهي قرية تبعد نصف ساعة عن الشيخ عثمان ، الحدود الفاصلة بين لحج والحكومة المحتلة .

ومنذ ذاك الحين حتى اليوم لم تضطر هذه الحكومة في الدفاع عن عدن الى توسيع الحدود مرة اخرى ، فلا يزال جمرك السلطنة اللحجية في دار الامير .

اما الشيخ عثمان فقداصبحت بلدة عامرةبالعساكر الهندية والحانات ، وبالصوماليات السافرات ، وبانواع الموبقات .وفيها كذلك مقام الولي حاتم بحر ، وبساتين اغنياء عدن ، وجنينة حيوانات سكانهــــا غزال وقنفذة وسعدان .

سلاطين ومشايخ لحج والنواحي المحمية

سلاطين لحج

مؤسس سلطنة لحج – اصل العبادلة – السلطان محسن بن فضل العبدلي – المعاهدة بينه وبين الانكليز – السلطان فضل بن علي محسن – اركان الملك الاربعة – السلطان احمد بن فضل – اتفاقه وامام صنعاء على الاتراك – المفاوضات السرية بينه وبين الادريسي – الملك حسين نصير الاتراك – السلطان احمد اول من سعى في سبيل الوحدة العربية – سفره إلى مصر – الزراعة في لحج – السلطان علي بن محسن بن فضل – ابن عمه المحسن المصلح محسن بن فضل – السلطان الحالي – تحسين علائقه مع الانكليز – المفاوضات بخصوص معاهدة جديدة – مطامع العبادلة في النواحي المحمية – طريقة الوراثة وتدخل الانكليز – المقال وانتخاب السلطان .

في سنة ١٧٠٩ ، عندما جاءت البعثة الفرنسية الى اليمن ، كان حاكم عدن مستقلاً عن امام صنعاء . وبعد ست وعشرين سنة من ذاك الحين استولى على عدن اول سلطان من سلاطين لحج . كان هذا الرجل قائداً من قواد الزيود طامعاً بالسيادة والمجد ، متساهلاً على ما يظهر في الامور الدينية . اقامه امام صنعاء عاملاً على اليمن الاسفل فتوسع بالاجازة الامامية واقام نفسه حاكماً مطلقاً مستقلاً ، بل اقام نفسه سلطانا . وبما ان عرب البلاد التي استولى عليها من الشوافع ، فلا يعززون حاكماً زيدياً ولو اطاعوه ، نبذ من اجلهم وفي سبيل مطامعه مذهب اجداده ،واتخذ المذهب الشافعي صراطاً الى النجاح قويماً . وهو مؤسس سلطنة لحج .

ثم خلفه في الحكم امراء من عرب العبادلة الذين اشتهروا بالشجاعة والعدالة ، وبحبهم الزراعة التي هي حتى اليوم مصدر ثروة لحج الصغيرة

وموضوع اهتمام سلاطينها . والعبادلة من اليمن الاعلى ، زيديو الاصل كما تبين يمتون بنسبهم الى عرب حمدان .

من سلاطين لحج اربعة مشهورون ، اولهم محسن بن فضل الذي احتل الانكليز عدن في عهده . وقد كانوا عقدوا في سنة ١٨٠٢ اول معاهدة ولائية تجارية مع والده السلطان احمد فاستمرت مرعيـــة الى سنة ١٨٢٧ ، فنقضها السلطـان محسن . ولكنه ُغلب في نهاية امره فاضطر ان يعقد واياهم معاهدة عندما احتلوا عدن سنة ١٨٣٩ كما اوضحت في الفصل السابق . ومن بنود تلك المعاهدة بندان لا نرى لهما غير الاثر الضئيل في المعاهدات الحديثة ، اولهما : ان لا يحق للاجنبي ، وان كان موظفاً بريطانياً في حكومة عدن ، ان يدخل الى لحج بدون اذن من سلطانها ، والثاني : ان من يرتكب جرماً من البريطانيين او من رعاياهم في البلاد يحاكم بموجب شرائعها .

قبـــل الانكليز في البداءة بهذين البندين ، ثم سعوا في توسيع سيطرتهم شيئاً فشيئاً ، فعدلوا البند الاول بل نقضوه باضافتهم اليه تلك العبارة الاعتمادية ، فقالوا : لا يحق لاجنبي ان يدخل الى لحج بدون اذن سلطانها **والاذن يطلب من دار الاعتماد بعدن** . وقد اسسوا محكمة قاضيها مسلم هندي فقضت على البند الثاني الذي يختص بمحاكمة الاجانب .

كان السلطان محسن غيوراً على استقلاله ، تواقاً الى السيادة الواسعة النطاق ، محسنا الى العشائر ، محباً للعلم والعلماء . ولكنه كان متقلباً في سياسته ، يترقب الفرص لتحقيق مقاصده التي لم تتفق يوماً واحداً في مقاصد الانكليز . غلبوه اولا وثانياً ، في سنة ١٨٣٩ عندما احتلوا التواهي ، وفي السنة التالية عندما حاول ان يخرجهم منها . فدارت عليه

الدوائر وكان هو من الظاعنين . اخرجوه من عـــدن ولم يأذنوا بان يكون له بعدئذ بيت فيها . ولا اذنوا بذلك لاحد من خلفائه .

ولكن خلف السلطان محسن لم يناوىء الانكليز ولا همّه ظاهراً امرهم ، بل ولى وجهه الشمال والغرب فسعى ان يعوض في داخل البلاد عما خسره سلفه في سواحلها . هو السلطان فضل بن علي بن محسن والد السلطان الحالي . وقد كان مقداماً حكيماً ، يقرن البطش باصالة الرأي ، ويرى ، وهو امي ، ان لا عز الملك بغير الثروة ، ولا ثروة بغير الزراعة ، ولا زراعة بغير الامن والعدل . فسعى في سبيلها كلها سعياً شريفاً . امتشق الحسام وكان منتصراً في غزواته كلها ، فاستولى على الحواشب ، ومكن نفوذ العبادلة في العشائر ، واكتسب بسياسة الصدق والعزم ثقة الانكليز واعجابهم . ولكنهم غلبوه بسياسة اللين ، بالقاعدة المرنة ، فاعاد الى سلطان الحواشب ملكه بعد ان استولى عليه بضع سنين ، فاستحكمت بعدئذٍ العلائق بينه وبين عدن والمسيمير[1] . حكم السلطان فضل ثلاثين سنة وكان في حكمه عادلاً حكيماً ، فسن شرائع لا تزال حتى اليوم مرعية تتعلق بالزراعة ، وبادارة الاوقاف ، وبتسهيل صلات العشائر بعضها ببعض .

اما خلفه السلطان احمد بن فضل بن محسن قرين السلطان محسن في الذكاء وحب العلم والعلماء ، فقد كان اشد حنكة ودهاء من اسلافه ولكنه لم يكن مثلهم كريماً احترمه البريطانيون ظاهراً وتعمدوا في معاملته ما كان من خلقه اي التكتم والمواربة .

وقد كان بين السلطان احمد والامام المنصور والد الامام يحيي صلة ولاء ادت الى اتفاق سري بينهما ، من شأنه مقاومة الترك والنزعة

(١) المسيمير هي عاصمة سلطنة الحواشب .

التركية في اليمن . ولم يقف السلطان احمد عند هذا الحد في مناوأته الاتراك ، بل مد يد الولاء والعون الى السيد الادريسي فكان سراً عضداً له في عسير ، وارسل الى الشريف حسين وهو يومئذٍ امير مكة دعوة للانضمام اليهم ، او الكف في الاقل عن مساعـدة الاتراك على امام صبيا وجيزان[١].

هوذا السلطان احمد عدو الترك واول من سعى على ما اعلم في سبيل الوحدة العربية . فقد دعا امراء العرب الى مؤتمر عام يعقد في احدى عواصم الجزيرة للنظر في مصير الامة العربية وتوحيد كلمتها وسياستها . ولكنه ، بعد ان ارسل منشوره الى الامراء ، عدل عن عمله لاسباب مجهولة . وقد تكون الحرب التركية الايطالية احد تلك الاسباب لانه تغير في سياسته وفي عواطفه بعـد تلك الحرب تغيراً سريعـاً مفاجئاً .

كلما جئت على ذكر الاتراك في البلاد العربية اراني مكبراً السيد محمد الادريسي وثباته في مبدئه وجهاده . فقد كان الامام يحيى عدو الاتراك فصار صديقهم في الحرب العظمى . وكذلك كان سلطان لحج السلطان احمد بن فضل ، فتحول في الحرب التركية الايطالية عن سياسته ومبادئه ، كأنه لم يسعَ سراً وجهراً في تقويض السيادة التركية

---

(١) كان الادريسي في تلك الايام خارجاً على الدولة ومهدداً بمؤامرة تركيـة شريفية زيدية . فسعى السلطان احمد ان يقاومها ويدفعها باتفاق او حلف عربي فلم يفز بذلك . جاء عزت باشا الى الحجاز في اذار سنة ١٩١١ يستنجد الشريف على الادريسي فانجده بحملة يقودها نجلاه الاميران عبدالله وفيصل . وكتب الى السلطان احمد يستنصره على عدو الدولة ويسأله ان يسعى في سبيل الصلح بينها وبين الامـام يحيى . ولكن سياسة السلطان احمد كانت يومئذ مخالفة لسياسة الشريف حسين .

في البلاد العربية . وقـــد كان من امراء العرب الذين ساعدوا الدولة بالمال ايضاً ، فدعي لذلك الى مصر ليقابل مندوبها السامي رؤوف باشا ، فلبى الدعوة ، وعاد من القاهرة يحمل وساماً من اوسمة الدولة، ويحمل غراساً من ارض الفراعنة .

ان للسلطان احمد مساعي مبرورة في تحسين الزراعة في لحج . فقد جلب الاغراس من مصر ومن الهند وكان في اهتمامه بها مثالاً للفـلاح عالياً . وقد كان شغفاً كذلك بالاوسمة ، فصك منها باسمه وشرع يمنحها الناس من عرب وهنود وانكليز . ثم باشر تنظيم المالية والجمرك فسن قوانين عديدة ، حالت دون تنفيذها الحرب العظمى . لا مرية في القول انه كان سلطاناً كبيراً ذا همة قعساء ، وذكاء ودهاء . هوالسلطان الزراع السياسي ، محب الابهة والاشجار الغريبة . ولكنه لم ينجح في دار الاعتماد نجاحه خارجها .

وما كان في خلفه ما يومىء الى التوفيق والتحسين من هذا القبيل . كان السلطان علي بن محسن بن فضل سلف السلطان الحالي رجلاً ورعاً تقياً يحترم علماء الدين والسادة الاشراف احتراماً جزيلاً ، ولم يكن له ارادة تستقيم وتشتد في السياسة والرئاسة . ولكنه لم يهـــتم لادارة الملك فاتكل في ذلـك على ابن عمه محسن بن فضل شقيق السلطان الحالي .

كان السلطان محسن [1] اديباً ذكي الفؤاد ، عصرياً في ارائـــه واعماله ، محباً للاصلاح والعمران ، عالي الهمة ، بعيد النظر ، شديد البأس ، ثابت العزم والارادة . فباشر في ايامه القصيرة اصلاحـــات

(١) كل اعضاء الاسرة المالكة يلقبون بالسلاطين ، وهم يدعون السلطـــان الاكبر « الوالد المالك والسلطان المعان » .

كثيرة في الجندية والمالية والمعارف ، ولكن الاقدار لم تشأ ان يكملها بنفسه فتوفي في عدن عقيب الهدنة عن اثنين وثلاثين ربيعاً . ان مثله من امراء العرب الشديدي النزعة الى القومية العربية ، الراغبين في تعليم الناشئة على الاسلوب الحديث ، الساعين في تحقيق امالهم الوطنية العالية ، ليؤسف على موتهم في ريعان الشباب . وقد وقف السلطان محسن ثروته على انشاء مدرسة عصرية ومستشفى وصيدلية في الحوطة ، فتأسست المدرسة وسيتم قريباً بناء المستشفى بفضل السلطان الحالي .

هو السلطان عبد الكريم فضل العربي الصميم في حديثه واخلاقه ، ولا اقول في ملابسه التي هي هندية اوروبية . اما ملامحه العربية فمثل اخلاقه وحديثه لا غبار عليها . هو نحيل الجسم ، مستطيل الوجه ، دقيق الانف ، غائر العين ، عصبي المزاج وفي الخامسة والاربعين من العمر . لكنه يظهر اكبر من ذلك لما في وجهه من تجعد وقتام ، ولما قاساه اثناء الحرب من الشدة والاحزان . وهو مثل اخيه الباسل وابيه سلطان لحج الكبير يكره النفوذ الاجنبي ويسعى سعياً هادئاً سلمياً في مقاومته وتقويضه . ولا عجب اذا كان من مساعيه ان يستعيد بعض الحقوق التي نالها السلطان فضل ابوه فاضاعها من خلفه .

على ان السلطان عبد الكريم يفتقر الى شيء من شدة ابيه وطموحه ، ومن نشاط اخيه وعزمه . فهو والحق يقـــال اقرب الى الادب والزراعـة منه الى السياسة والادارة . له ذوق في الموسيقى ويحسن بعض الاحسان العزف على البيانو ، وله رغبة في المطالعة فيهتم خصوصاً بتاريخ العرب والاسلام . وهو مثل السلطان احمد شغف بالزراعـــة يقضي ساعات من يومه في بساتينه . لذلك قيل فيه على ما اظن انه قليل الاكتراث ضعيف الارادة . وقد يتخلل عزمه ، وهو عصبي المزاج ،

فترات يسيء الناس فهم اسبابها ونتائجها .

ومن مزاياه انه يحترم الرأي والحرية الفكرية في الناس . اما علاقته مع البريطانيين فالمداراة اظهر ما فيها . على ان له في دار الاعتماد مقاماً محترماً وكلمة مسموعة ، فيستشيره اولوا الامر في كثير من المسائل التي تختص بالعشائر واحوال البلاد الداخلية .

ان في لحج نهضة في التعليم تذكر ، وهي على صغرها سيدة النواحي التسع المحمية ، سيدتهم معنوياً وسياسياً ايضاً . فان ام السلطان عبد الكريم من اليوافع ، وبينه وبين العوالق ولاء وثيق العرى ، وله على الصُبيحة والحواشب سيادة لا بد ان تمتد الى سواهما .

اما الامارة في لحج وفي النواحي التسع فهي انتخابية لا ارثية . لذلك تقدم السلطان عبد الكريم اثنان من اخوته بعد موت ابيه السلطان فضل . ولكن الانتخاب اي المبايعة هي من قبل الخاصة فالمبايعون هم العقال [1] اي حكام النواحي الذين يعينهم السلطان فيجتمعون مع رؤساء العشائر لينتخبوا ولي العهد الذي يجوز ان يكون من غير الاسرة المالكة .

ان ولي العهد وهو يُنتخب في عهد السلطان الحاكم ، يصبح منذ ذاك الحين مقيداً بالسياستين ، سياسة لحج وسياسة عدن ، ورهين الارادتين ، ارادة المعتمد وارادة السلطان التي قد تكون ، وان كانت وطنية ، جائرة مثل الاولى . هوذا موطن الضعف والخلل في تلك الحكومات العربية الصغيرة كلها . لا اقول ان الانكليز اخترعوا هذه الطريقة في الارث ووضعوا قواعدها ، ولكنهم ولا شك ينتفعون بها للتدخل في

(١) حاكم الولاية يدعى في اليمن عاملاً وفي نجد اميراً وفي هذه النواحي عاقلا .

شؤون البلاد .

حبذا لو ساعدوا في تغيير هذه الطريقة فيكتسبوا حب الناشئة العربية الراقية وثقة اولياء الامر في البلاد. ولا اظنهم يفقدون في ذلك شيئاً من حقوقهم الشرعية او من نفوذهم الصالح المفيد . اما غير ذلك من حق او نفوذ فهو يضربهم اكثر من ضرره بالعرب . اجل ، ان الحقيقة البليغة الرائعة التي يجب ان تتدبرها اليوم وزارة المستعمرات بلندن هي هذه : كلما قل تدخل بريطانيا في شؤون الامراء الوطنية والخاصة تعزز مركزها لديهم . او بالاحرى كلما امتنعوا ، حكمةً ونزاهةً ، عن مد يدهم الى ما وراء حدودهم المعروفة ثبتت قدمهم ضمن تلك الحدود . ولا اظنهم يبغون اكثر من ذلك .

لحج في الحرب العظمى

جزيرة الشيخ سعيد – ضربها واحتلالها – احتجاج الامام يحيى – زحف الاتراك على عدن – الجنود الانكليزية تتقدم الى الشيخ عثمان – تأخير النجدة الانكليزية – الامير لواء علي سعيد باشايفاوض سلطان لحج – وقعة الدُكيم – تدمير لحج – وصول النجدة الانكليزية في الليل – اطلاق النار خطأ على السلطان ورجاله – الاسرة المالكة في عدن – لحج وعدن تتهادنان وتتسالمان – تركي كريم النجار – وما جزاء الاحسان الا الاحسان .

في باب المندب ، على مقربة من رأس البر اليمني ، جزيرة صغيرة تدعى الشيخ سعيد ، قد جاء ذكرها في تقارير عدن الرسمية اثناء الحرب ، وسيجيء ولا شك ذكرها في المستقبل في تقارير وصكوك لا يطلع عليها غير القليل ممن تهمهم امتيازات النفط والمعادن .

هذه الجزيرة هي اليوم في حوزة الامام يحيى بن حميد الدين ، وقد كانت اثناء الحرب في يد الاتراك تابعة للساحل الجنوبي الغربي الذي يتصل ببلاد عرب الصبيحة . وعندما انضمت الدولة العثمانية الى الدول الوسطى ، وشهرت السيف على الحلفاء ، قررت القيادة في اليمن الزحف على عدن . فلما علم بذلك الانكليز اوقفوا ثلاثة طوابير من الجنود في البحر كانوا مسافرين من الهند الى السويس ، فضربوا في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ الشيخ سعيد ليدمروا الآبار والحصون والمستودعات فيها . ولكنهم لم يستطيعوا ، لشدة الانواء ، النزول الى الجزيرة فنزلوا الى البر [1] قريباً منها في حمى مدافع السفن الحربية ،

---

(١) قد اغضب هذا الاعتداء الامام يحيى فاحتج عليه ، فكتب اليه الكرنل

فتقهقر العدو الى داخل البلاد . ثم دمر الانكليز قلعة تُربه وغيرها من الحصون في تلك الناحية ، وغنموا بعض المدافع فظنوا انهم اوقفوا الاتراك في الزحف على عدن . نعم ، اوقفوهم سبعة اشهر ، وبعدها أعادوا الكرة على جزيرة الشيخ سعيد فاحتلوها ، ومشت جنودهم من ماويه الى لحج تقصد الهجوم على عدن .

وكانت السلطة البريطانية فيها قد احتاطت للامر بما لديها من قوات الدفاع القليلة ، فامرت بنقل الحامية من عدن الى الشيخ عثمان ثم بالتقدم الى لحج . جاء في التقارير الرسمية : « ان شدة الحر وقلة الماء وفرار الهجانة المأجورين اخرت الجنود في الطريق وحالت دون الغاية المقصودة » .

على ان طليعة الجيش البريطاني وصلت مع ذلك الى محجتها في ذاك اليوم ونازلت الاتراك خارج لحج قبل ان تصل الجنود اليها ، فدارت الدائرة على البريطانيين ، فتقهقروا عن لحج مهزومين ، فدمرها الاتراك في ٥ تموز سنة ١٩١٥ ونهبوها . ثم زحفوا على الشيخ عثمان فاحتلوها في اليوم التالي .

ولكن النجدة التي وصلت بعدئذ الى عدن اخرجت الترك من الشيخ عثمان في ٢٠ تموز ، فعادوا الى لحج وتحصنوا فيها ، وظلت شرذمات منهم في ام العُمُد والوَهط ، فحاول الانكليز مراراً ان يخرجوهم منهما فلم يتمكنوا الا بعد ان انجدتهم عشائر العرب

تابع شرح صفحة ٤٢٧

جاكوب المعاون الاول يومئذ في دار الاعتماد يقول : ان الضرورة الحربية حملتهم على ضرب الشيخ سعيد وان ليس لهم في ذلك قصد خفي او سياسي ، وان جلاءهم قريباً عن تلك الناحية يثبت ما يقول . — ملوك العرب لجاكوب .

التي استنجدوها . ولكنهم لم يستطيعوا ولا حاولوا بعدئذ ان يخرجوا الاتراك من لحج . فظلوا فيها الى نهاية الحرب .

هذا ما وصل بالطرق الرسمية الى الدوائر الحربية في الغرب من اخبار تلك الزاوية العربية القصية ، وليس فيه كلمـــة عن نكبة لحج وعما حل بالاسرة المالكة وبسلطانها حليف بريطانيا . فجئت اروي الخبر كما سمعته وتحققته من مصادر شتى هناك .

في السنة الثانية من الحـرب اي في صيف سنة ١٩١٥ كان للدولة العثمانية في اليمن خمسة وثلاثـــين طابوراً ، اي نحو خمسة عشر الف جندي ، اكثرهم من السوريين . وكان منهم قسم في ماوية تحت قيادة الامير لواء علي سعيد باشا الجركسي الذي سعى ان يضيف اليـه قوة من العربان . كان علي سعيد باشا كريم الاخلاق جواداً ، فاحبه العرب وانضم الى جيشه بضعة آلاف من الحواشب واليوافـع والصبيحة (١) فعول على مهاجمة عدن ولم يكن قصده غـــير اشغال البريطانيين هناك . وبما ان لحج ، وهي في طريقه ، سلطنة مستقلة بعث الى سلطانها يستأذنه بالمرور ويعده بالمحافظة عليه وعلى ملكه . فأبى السلطان علي لانـه حليف الدولة البريطانية وتحت حمايتها . مـا اشبه لحج واللحجيين من هذا القبيل بالبلجيك واهلها : ليست بلادنا بدرب يجتازها المتحاربون .

خرجت جيوش علي سعيد باشا من ماوية وسقطت على لحج ، فاستنفر سلطانها الورع بعض العشائر المجاوره فانجدوه ، وخرجوا

---

(١) وقد كتب الى الامام يحيى يطلب منه المساعدة فلم يلب الامام طلبه . بل ان الامام ، كما قال علي سعيد باشا عندما سلم الى الانكليز ، كان يعارض رأيه في الزحف على عدن .

وهم بضعة آلاف يلاقون الاتراك وهم ضعفاهم عدداً واضعافهم عدة. فاصطدم الجيشان قرب الدكيم ، على مسافة عشرة اميال من لحج ، فانهزم اللحجيون . ولذلك اسباب ثلاثة – لم يكن معهم من عتاد الحرب غير القليل . لم يكونوا على شيء من النظام . لم تصلهم النجده من الانكليز الا بعد الهزيمة . وقد جاء في التقارير الرسمية ان لابطاء تلك النجدة ثلاثة اسباب ايضاً . ولكن هناك سبباً آخر غير القيظ وقلة الماء وفرار الهجانة . فقد سمعت في عدن ان الجنود الهندية عصوا يومئذٍ ضباطهم لانهم كرهوا ان يحاربوا اخوانهم المسلمين . والحقيقة التي لا ريب فيها انهم ابطأوا في الانجاد ثم انهزموا .

عندما دخل الاتراك لحج كان السلطان علي واسرته لا يزالون في القصر يدافعون عن انفسهم ، فاضطروا ان يخرجوا منه عندما بدأت الحجارة تتساقط عليهم من الجدران التي كانت تخترقها القنابل ، فبادروا في الغسق الى الفرار ووجهتهم الشيخ عثمان . اما الجنود البريطانية فكانوا قد خرجوا من تلك البلدة لينجدوا اللحجيين ، فالتقوا بالسلطان واسرته تحت جنح الظلام ، فظنوهم من كشافة العدو ، فاطلقوا عليهم النار ، فقتلوا عدداً منهم واصيب السلطان علي برصاصة في رجله ، فنقل الى عدن وتوفي من اثر الجرح هناك (١) .

دخل الاتراك الى لحج فدمروا قصور السلاطين ونكلوا باهل المدينة ، ففر الى عدن من سلم من الاسرة المالكة وكثيرون من الاهالي . وعندما خلف السلطان عبد الكريم السلطان علياً كان من

(١) « اننا في اهمالنا مسؤولون عن وفاة السلطان علي المبتسرة » . هارولد جاكوب في كتابه ملوك العرب .

اول اعماله انه احتج احتجاجاً شديداً على بريطانيا لانها لم تقم بواجب المعاهدة بينها وبين اجداده ، فقبلت حكومة لندن الاحتجاج وعزلت حاكم عدن وقائد الحامية فيها .

اقام السلطان والاسرة المالكة في عدن مدة الحرب كلها ، وهم يستعينون على الدهر بما كانت تدفعه الحكومة لكل منهم ، في حين ان املاكهم وقصورهم وبلادهم كانت في حوزة الاتراك يتمتعون بها وبخيراتها . حتى اصبح هؤلاء في غنى عن الامداد والتموين من مركز القيادة العثمانية في داخل اليمن . بل كانوا بعد ان استقر امرهم في لحج على شيء من اليسر وجانب من الامن والاطمئنان يُستغرب مثله في ايام الحرب بين المتحاربين .

والسبب في ذلك بعد الفريقين على ما اظن عن ساحة الحرب الكبرى وعن مركز حكومتيهما . كان الجنود والضباط يسمعون ولا شك بويلات تلك الايام واهوالها ويحمدون الله لما بينهم وبين تلك الويلات من المسافات . فلما امن الانكليز على مركزهم في عدن والشيخ عثمان تركوا لحج للاتراك . ولما امن الاتراك على لحج ونواحيها تركوا عدن للانكليز . قنع كل بما ملكت يده ، وكُللت القناعة بكرم الاخلاق .

اجل ، بينما كانت رحى الحرب تطحن الانسانية في شمالي فرنسا وتملأ الارض هولاً وقبوراً ، كان الترك والانكليز في هذه الزاوية المباركة من اليمن السعيد يتبادلون المعروف والاحسان وكان للقائد الجركسي علي سعيد باشا الفضل الاكبر في ذلك بشهادة الانكليز انفسهم . اما العرب فلا يزالون يذكرونه اليوم بالفخر والاعجاب .

قلت ان شيئاً من اليسر عاد الى لحج بعد نكبتها لان الاهالي

والعساكر شرعوا يزرعون ويشتغلون ، فازدهت تلك البقعة الخصبة التي تستقي من فرعي وادي دُبن بالاخضرار والثمار . اما عدن وهي في فم البركان فلا ترى فيها ولا في جوارها عشبة خضراء . فتبادل القائدان السلام ، ثم الكلام ، ثم : — هذه بقولاتنا نرسلها اليكم كل يوم على الرأس والعين . فشكر الانكليز الترك قائلين : وهذا الارز والسكر لكم منهما ما تبغون . وهذه فوق ذلك السكاير . فهتف عسكر الدولة : عاش الانكليز .

كذلك تم الصلح بين الاحلاف والدول الوسطى ، او بالحري بين ممثليهم في عدن وفي لحج ؛ قبل ان انتهت الحرب بسنتين . ولما اعلنت الهدنة دخل علي سعيد باشا الى عدن ليسلم سيفه الى الانكليز ، فاستقبل فيها استقبالاً جميلاً . دخل المدينة لا كالمهزوم بل كالفاتح المنصور .

التمدن الحديث في لحج

اثر من الآثار في تاريخ البخار – بين عدن ولحج – وفد المرحبين – ملابس اللحجيين الزاهية – سمو السلطان – ردهة الاستقبال – صحيح البخاري والفونوغراف – وزير السلطان السيد علوي الجفري يفوه بكلمة – المستر كروس قنصل اميركا يلقي خطاباً بعشرين كلمة وكلمة – سلطان متمدن – الموسيقى العسكرية تصدح بالنشيد الاميركي – مائدة السلطان – غرفة « البليياردو » – في البساتين مع شاعر وسلطان – اشجار لحج – شاعر لحج وفيلسوفها – ولي العهد الصامت – المدرسة الفضلية – المدافع والالقاب – عرب الحجور – خناجر لحج – البخاري والمسواك وعائشة – البخاري وصندوق الزجاج – ثالوث الحرية .

كتبت بعد وصولي الى عدن في طريقي الى صنعاء كتاباً الى صاحب السمو السلطان عبد الكريم بن فضل ارغب اليه في التشرف بزيارته . وكتبت بوساطة قنصل اميركا الى دار الاعتماد استأذن بذلك . فجاء في اليوم التالي جواب السلطان مرحباً بي ، ثم جاءني بعد يومين من معاون المعتمد كتاب ضمنه اذن باسمي واسم رفيقي واذن آخر باسم القنصل الذي شاء ان يرافقنا .

ركبنا من محطة عدن قطاراً عسكرياً ، خطه ضيق ، وعرباته قديمة ، جيء به من الهند ، وقاطراته اثر من الآثار في تاريخ البخار . فرقصت بنا وهي ترجرج وتقرقع في ارض سبخة قريبة من البحر ، ومرت باكام من الملح مستخرج منه ، ثم بواحة الشيخ عثمان بين صفوف من مقاهيها . ومنها الى دار الامير اي الحدود بين عدن

ولحج ، ثم صُبر ، فجلاجل ، فنوبة الهراني ، فالحوطة . وكلها ما عدا العاصمة ودار الامير اسماء لاكواخ من القش واللبن وسط شيء من شجر الاسل واميال من القفر الذي تهب فيـــه رياح البادية تحمل السموم والموت من الربع الخالي . ويمتد خط الحديد من الحوطة الى مكان يبعد ستة اميال عنها يدعى الُحداد .

اما المسافة بين عدن والحوطة فلا تتجاوز العشرين ميلاً . اجتزناها بساعتين — حتى البخار يتباطىء ، يستشرق في الشرق — ووصلنا الى العاصمة بخير وسلامة ، فرحب بنا في المحطة ولي العهد وأخو السلطان وغيرهما من القصر ، وهم في ملابس تدهشك منهـا لاول وهلة الالوان الزاهية البهيجة ، ثم شكلها الذي يختلف عن ملابس البدو والحضر في اليمن وفي الحجاز . وما اشبه اللحجي في فوطته المخططة التي تصل الى الركبة وعمامتـه الطويلة الذؤابة بالاسكتلندي اذا لبس ثوب عشـيرته اي التنورة الملونة والقبعة ذات الريش .

ولكن السلطان احمد وهو قائد الجيش يلبس مثل اخيــه السلطان المالك عبد الكريم ، الا ان له شغفاً بالالوان الباهرة . رأيته اول مرة في بنطلون ابيض ضيق حول الساق ، وفوقـــه معطف الى الركبة اسلامبولي الشكل ، الا انه من الحرير الازرق المخطط ، يشطره زنار وافر مشدود الى وسط نحيل ، وفي الزنار خنجران هائلان مرصعان بالحجارة الكريمة ، وعلى رأسه عمامة صفراء حمراء زرقاء ملفوفة في شكل هرمي — هي الموضة ، عند اعيان لحج — وطي اضلعه ماينافض كل ذلك اي روح " عصرية " حتى الكفر . سنعود الى السلطان احمد بعد ان نقابل سمو اخيه .

ركبنا من المحطة في سيارة اوصلتنا الى القصر فخف الى استقبالنا

عند الباب سمو السلطان ، وهو يلبس فوق ثيابه الافرنجية عباءة بنية ، وعمامة ملونة هندية ، ومعه حاشيته ووزيره الاول السيد علوي الجفري . ثم صعد بنا الى ردهة الاستقبال في الطابق الاول ، وهي رحبة انيقة جليلة ، يدخل اليها نور الشمس في جلباب من التقوى يُلبسه اياه الزجاج الملون في النوافذ – كأنه من كنيسة مسيحية – وتلطّفه السُجُف البيضاء المخرمة كأنها من قصر انكليزي ، ان في هذه القاعة مجلسين افرنجياً وعربياً ، فرش الاول غربيّ الشكل الا انه من صناعة الهند ، تحتل زاوية منه آلة الفونوغراف ، وفرش الثاني دواوين عربية مُتقطّعها المساند والوسائد . وهناك بين المجلسين طاولة عليها مجلدات ضخمة هي شرح البخاري ، ذاك السفر الجليل المدهش ، الفريد في بابه ، الممتاز بالشروح الثلاثة للكلمة النبوية ، اي شرحُ شرحِ الشرح . ولا يجوز ذكره بغير الاجلال كامل الاسماء ، فهو القسْطلاني على صحيح البخاري ، والخزرجي على القسطلاني ، والامام النووي على الخزرجي .

– وهوذا يا صاحب السمو المستر كروس قنصل اميركا في عدن .

فرحب سموه به واجلسنا ، اكراماً له على ما اظن ، في المجلس الاول الرسمي الذي يستقبل فيه ضيوفه الافرنج . ثم تعطف فاجلسنا كلنا محل الاهل والاحباب على الدواوين العربية التي تبعدنا عن الفونوغراف وتقربنا من البخاري .

– كان قنصل اميركا السابق صديقنا يزورنا من حين الى حين . ولكم كان له عندنا من الحب والاكرام . قال هذا السلطان ، وكنت انا الترجمان فسررت بالقنصل لانه قليل الكلام . شكر

سموّه وسكت . فاستلمت اطراف الحديث شاكراً ، ونشرت منها المألوف في السلام والتبجيل ، ثم المعروف من ظـــاهر سياحتنا ، فاوقفتني عند هذا الحد كلمةٌ من السيد علَوي شوّقت الي حديثه ، وهو لطيف الابتسامة ، برّاق العين ، فصيح اللسان ، يستأنس به جليسه من مجرّد النظر اليـه . ولكني عرفت انه الوزير الاكبر وانه أهل لذا المقام العـــالي لانه مثل القنصل الامريكي قال كلمته وسكت .

— مقاصدكم شريفة يا حضرة الفاضل وقد عرفناها .

فاضاف السلطان عبد الكريم الى ذلـــك كلمةً اخرى لطيفة : وسيزيدنا الاستاذ معرفة ان شاء الله . زيارة مثـله لا تنقضي في جلسة واحدة . ثم سألنا عن صحة الملك حسين ، فكان دور القسطنطين ، الذي اجاب بما يسر المحبين ، ويريح بال المعجبين برجل مكة الاكبر . ثم مال سموه الى القنصل فقال : يجب ان تغض النظر يا حضرة القنصل . ليس عندنا ما يليق بكم ويشرفنا في نظر الامــــة الاميركية العظيمة غير حبنا لكم واخلاصنا .

ترجمت الى اللغة الانكليزية هذه الكلمة وفيهــــا جميل التواضع واللطف فادهشني من المستر كروس جوابه الذي تجاوز الكلمتين قال لا فض فوه : سأنقل كلام سموكم الى حكومتي واحب ان اقول بالاصالة عن نفسي ان في العرب فضائل كثيرة تشرفهم في نظر الامم الغربية .

هنأته بعدئذ بحسن جوابه وحسن سلوكه . ومن ادرى باخواني الاميركيين مني ؟ لقد كنت اخشى منـــه سكوتاً يسيء او كلمة توجب الشرح والتفسير . وهو مثل اكثر الاميركيين لطيف كريم في

ما يفعل اكثر منه في ما يقول :

بعد ان شربنا القهوة نهض السلطان وتقدمنا الى الجهة الاخرى ، الى المجلس العربي قائلاً : هذا بيتكم . ربما انتم تعبون . وراح تتبعه حاشيته الى داخل القصر . فجلسنا نحن الثلاثة وفي كل منا شيء يأبى الكتمان .

— سلطان عربي في ثياب هندية افرنجية .

— سلطان كريم حكيم .

وقال المستر كروس : سلطان متمدن .

وستدهشك من تمدن هذا السلطان اشياء اخرى كثيرة . هذه مجلة عربية من مصر ، وهذه جرائد من القاهرة ومن الاستانة . وهذه في ألواح الفونوغراف اغانٍ مصرية واناشيد انكليزية ، وهوذا يا مستر كروس النشيد الوطني الاميركي تسمعكه جوقة لحج العسكرية ! سررنا بالنشيد الاميركي لانه كان من اجمل آيات الترحيب والاكرام . والحق يقال ان ما من احد يزور لحج الا ويعجب بذوق سلطانها الذي تفصح عنه مجالسه ، ومائدته ، وسياراته ، وخيله ، و كتبه . انك لترى اشياء من الشرق والغرب مجتمعة غير متنافرة في قصور لحج .

نمنا في الاسرة ضمن الكلل ، وجلسنا والسلطان الى مائدة تعددت وتنوعت الوانها ، فكأن الطاهي شرقي خدم في مطبخ فندقٍ اوروبي ، وشربنا التنبك في المداعة الهندية الشكل الطويلة القوام واللي (١) وركبنا السيارة يصحبنا ولي العهد واحياناً السلطان نفسه او اخوه السلطان احمد الى خارج البلد نشرف على بساتينها الا ان الدهشة الكبرى كانت في غرفة « البليياردو » وفيها طاولة انكليزية كبيرة اعدت عليها

(١) المداعة ، الارجيلة — واللي ، النربيش .

ذكرى ايام كنت بهذه اللعبة هائماً مبرزاً .

اما محاسن لحج ومستغرباتها فاكثرها في قصور الامراء والبساتين ، وللسلطان عبد الكريم عناية خاصة بالاثنين انك لتجد الشرق والغرب مجتمعين حتى في الاشجار . فهذا التفاح الشامي في جوار العمْب الهندي . ولكن الزراعة ، على اهتمام سلاطين لحج وشغفهم بها ، لا تزال في طور النشوء . مشينا صباح يوم وسمو السلطان الى احد تلك البساتين فكان اول ما اوقف النظر منا رجال يحفرون بئراً كما لو كانوا في ايام عاد وثمود . فما المانع من استخدام الآلات البخارية ونفقاتها مثل اجرة العمال ان لم تكن اقل : ان ارض لحج صالحة للآبار الارتوازية . وهي مع ما يجري فيها من مياه وادي دُبن تحتاج الى هذه الآبار لان نهري الوادي يجفان في الصيف فلا تكفي الارض مياه الصهاريج .

ها هنا وجدنا النقص في الزراعة ، فان ارض لحج خصبة جداً ويمكن ان يزرع فيها القطن الذي رأينا قليلاً منه في البساتين اذا بني سدّ في طرفها الشمالي على مرتفع من وادي دُبن تصب مياهه في الصيف فيسقي الارض المزروعة كلها .

— اظن ما تشكوه يا مولاي من صغر ثمر العَمْب ناتجاً عن امرين : عدم التلقيح وقلة الماء .

— ولكن عمبنا في لحج على صغره اطيب من عمب الهند .

والعمب والخثاء [1] من الاشجار التي لا ترى في غير المناطق الحارة . مشينا في ظلالها الوارفة وسموه يعرفنا بما ينبت في لحج وما يزرع في البساتين .

---

(١) العمب هو الـ Mango والخثاء هو الـ Papaya

ـ هذا السمُر الذي يذكره الشعراء .

فقال رفيقنا الامير صالح وهو شاعر :

كأني غداة البين يوم تحمّلوا لدى سمُرات الحي ناقف حنظل

ومنه الشوكي العربي واللاشوكي الهندي .

ـ وهذه شجرة تعطي قطناً افخر من القطن ودود الحرير نسميها شجرة « القطن الحريري » . هي تشابه في طولها ونحولها شجر الحور .

وهذا العُشْر الذي يستخرجون منه البارود .

فقال الامير صالح : وكان عود الكبريت عند الاقدمين .

وهذا الأسل صديق الابل .

قلت : وهو شبيه السَلم .

فقال الامير الشاعر :

أمن تذكر جيران بذي سَلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

ولكن شاعر لحج وفيلسوفها ، الذي لا ينظم ولا يكتب كلمة للبشر ، انما هو السلطان احمد بن فضل . قال لي ذات ليلة طال فيهـــا السمر وما ذوى غصنه :

ـ وما التعصب وما المذاهب كلهـــا ؟ بلية الامم والله ونكبة الاوطان . لو كان العرب يعقلون لعلموا ان خلاصهم ها هنا لا ها هنـا (واشار الى رأسه ثم الى قلبه)، نعم ، ان العقل ـ وانت ياحضرة الاستاذ ادرى بما قاله شاعر العرب الكبير ابو العلاء المعري ـ ان العقل مصباح الحقيقة، والحقيقة اساس كل عمل صالح ثابت مفيد سياسياً كان ام دينياً. اما القلب فغالباً ضال ، هذا الزيدي يغمس ثيابه وجسمه في النيل لظنه ان النيل يقيه البرد . والظن يصبح بالممارسة عقيدة . والعقيـدة يثبتها الوهم . انا جرّبت النيل لما كنت شاباً فلم يدفع عني البرد . ولو حكّم

كل امرىء عقله في الامور لبان الضلالُ في كثير منها مثل النيل ، ولما رأيتَ هؤلاء الجهال المتنيلين عندنا . وستراهم، سترى خيرات (كثيراً) منهم غداً عند الزيود . قد قيل لي ان الزيود ينيلون اجسامهم وثيابهم حداداً على الحسين . لا يزالون الى اليوم يحدّون على الحسين ! والاجدر بنا يا استاذ ان نحدّ على العقل في بلادنا وعلى العلم .

اما السلطان احمد وهو الجندي الفيلسوف ، حاد المزاج ، شديد اللهجة والبأس ، فيحدّ في قلبه لا في ثيابه . كان يزورنا كل يوم وهو يحمل الينا ضمة من الورد فينعش النفس منا ، كما كانت الوان ملابسه تنعش البصر ، وكما كان حديثه ينعش العقل والآمال . وهو لا يتجاوز الاربعين . له شغف بالعلوم والفنون نادر في تلك الناحية القصية من البلاد العربية . يطالع الجرائد والكتب والمجلات ، ويحدثك في سياسة الامم كما لو كان نزيل القـــاهرة . وهو من غواة الصيـد والتصوير والموسيقى ، فيحسن العزف على كثير من آلات الطرب ويدير الجوقة العسكرية التي اسمعتنا النشيد الاميركي . ولكن مهنه المتعددة لا تبعده عن الحقل والبستان ، فهو مثل اخيـــه مزارع كبير يحب العمل في الارض بيده . اما رأيه في المدنية الغربية فهو على شديد نزعته العربية لا يرى فيها الضرر الذي يتوهمه بعض الشرقيين .

— وما ضرنا اذا لبسنا الافرنجي وكانت عقولنا سليمة ووطنيتنا صادقة ؟ اذا كانت قيمتي في هذه العمامة وفي هذه الجنبية فلا كانت الجنبية ولا كانت العمامة ولا كنت انا .

ان السلطان احمد فضل هو السلك الكهربائي في لحج . وهنـــاك السلطان الصامت مهدي بن علي ابن عم السلطان الحاكم . وقد يكون صامتاً لانه ولي العهد الظاهر المؤيد ، وقل المقيد ، بالسياستين العدنية

واللحجية ، الانكليزية والعبدلية . قلت : الظاهر ، لان سمو السلطان عبد الكريم ، في ما يسعى اليه من الاصلاح الذي تقدم ذكره ، يأمل ان يكون ولي العهد ابنه الامير فضل ، وهو في السادسة عشرة من العمر يتلقن العلوم واللغة الانكليزية من اساتذة في القصر . اقترحت على السلطان ان يرسل الامير فضلاً الى مدرسة في سوريا او في مصر فقال انه يرغب في ذلك ولكن الام لا تصبر على فراق ابنها .

— ولكننا سنحضر الى لحج ان شاء الله اساتذة من مصر وسوريا يعلمون في مدرستنا .

هذا ما قاله لي عندما زرته ثانية بعد رجوعي من اليمن لاهنئه بعيد الاضحى . وقد هنأه يومئذ تلاميذ المدرسة الفضلية بما القوه من القصائد والخطب قديمة الاسلوب عقيمة المعنى . اما كتب التدريس التي أمر المعلمين بان يطلعوني عليها فهي مصرية ومنها سورية وكلها حديثة . فاستبشرت في ذلك وقلت في كلمة القيتها على التلاميذ ان لحج زاوية اليمن المباركة ، وستصبح بفضل سلطانها زاوية العلم والتمدن . هذا اذا أتم مايقصده من الاستعانة بالاساتذة والاطباء العرب يجلبهم من سوريا او من مصر .

وحبذا الانكليز عوناً له في هذا السبيل . حبذا منهم المساعدة في تأسيس مدارس وطنية تعلم فيها اللغة العربية والعلوم الحديثة . ليتهم يهتمون بالتعليم ربع اهتمامهم بالسياسة وبكل ما يعزز جانبهم فيها . فقد ساعدوا في تنظيم جيش لحج الصغير ، وسهروا على ارضاء سلاطينها بما يظنونه اكراماً كبيراً . ومما يضحك في تاريخ علائقهم السياسية والولائية انه في ١٩ ك ١ ١٨٩٥ قررت الحكومة ان تزيد المدافع التي تطلق لسلطان لحج من التسعة الى الاحد عشر مدفعاً . وفي سنة ١٩٠٣ منحت سموه لقب ورتبة « فارس في نجم الهند » . وهم ، في رسائلهم ،

يخاطبونه كما يلي : عمدة الامراء الكرام ، وقدوة النجباء الفخام ، سمو السلطان محبنا وصديقنا السير عبد الكريم فضل بن علي العبدلي ، كاي . سي . آي . إي . « K.C.I.E » [١] وهو يبادلهم هذا الاكرام والتبجيل فيورده اليهم كلمة كلمة . لو تُرجمت « عمدة الامراء الكرام وقدوة النجباء الفخام » الى الانكليزية ، وهي تتقدم اسم موظف انكليزي ، لكانت تفكه وزارة المستعمرات . ولكنها تظل مخزونة في رؤوس الكتّاب والمترجمين في دار الاعتماد .

اما العرب فلا يحفلون بمثل هذه الترهات وقلما يعرفونها . فهم يخاطبون سلطانهم بقولهم ، السلطان المعان او الوالد المالك . واهالي لحج من عرب اليمن والمولدين ، اهم قبائلهم بعد العبادلة العُزيبي واهل البان واهل سلاّم . وفيهم الحُجور من ناحية في حضرموت تدعى حجْر قرب مكلا ، سمرتهم شديدة تضرب الى السواد ، فيظنهم السائح لاول وهلة عبيداً . هؤلاء الحجور [٢] يشتغلون في لحج كل الاشغال الشاقة . في الحقول تجدهم وفي القصور ، يحرثون ويخدمون ويحسنون العمل .

ان الحجري اكبر جسماً واشد ساعداً من اللحجي ، على ان وجه هذا أدق ملامح من ذاك ، وفيه من سيماء الذكاء ما قلما تجده في الحجري النشيط الباسل . اما الثياب فالحجور يستغنون عنها كلها ما عدا الفوطة والعمامة . وقلما تجد لحجياً اياً كان ومهما بالغ في اللبس او العري ، لا يحمل خنجراً من تلك الخناجر الرائعة المفضضة القبضة والنصاب التي تصنع في لحج . ومنها ما يكون نصابها مزدوجاً بشكل اللامين في « الله » فتظن صاحبه حاملاً خنجرين . ما رأيت في كل

(١) راجع الهامش في صفحة ٣٩٩

(٢) جمع حجري .

من يستغنون عن الثياب في البلاد العربية ويقربون بسمرتهم الى السواد من هو اشد بأساً ، وأرهب طلعة ، من حجري يلبس عمامة كبيرة منيلة ، ويحمل خنجراً مزدوج النصاب . انه مع ذلك لتقي .

كنت وسمو السلطان في احد بساتينه خارج المدينة فرأيت الحجري يحرث الارض ، ورأيته يصلي وهو واقف على صندوق كبير في الجو فيه ماء للقاطرة حيث تنتهي سكة الحديد . عامل من عمال الشركة يشتغل في تصليح مستودع المـاء ، فآذنت الشمس بالغروب ، فترك عمله ، ووقف مكانه يصلي صلاة المغرب ، ان ذلك لجميل ، وان ديناً يستوقف العامل في عمله ليذكر الله لأجمل .

بيد ان بعد ساعة رأيت الوجه الآخر من ذا الجمال . عند رجوعنا ذاك اليوم الى القصر تناولت مجلداً من صحيح البخاري وفتحته عرضاً فاذا انا في باب المسواك والاحاديث النبوية في المسواك والشروح وشروح الشروح . أطبقت الكتاب وفتحت جزءاً آخر منه فاذا بعائشة تحدث عن النبي وعما كان مسلكه في الغسل قبل الجماع وبعده في الليلة الواحدة : فخلتني اقرأ مذكرات احدى الخواتين الفرنسيات .

ولما جاء السلطان احمد يزورنا تلك الليلة اشرت الى ما كان من حظي في البخاري فقال : لو قرأته كله كما نقرأه نحن في شهر رجب لكان حظك احسن . ثم قال . البخاري يا حضرة الاستاذ مثل صندوق زجاج يجيئنا من اوروبا . صندوق كبير ، كبير جداً ، فيه ست كؤوس او ستة قناديل ملفوفة ، مدفونة ، في قنطار من القش . هذا هو البخاري .

لست اذكر الآن اذا كانت الكلمة هذه للسلطان احمد او للشيخ

علي رضا السوري الطرابلسي ناظر الجمارك في السلطنة اللحجية . كلاهما عريق في الحكمة وحرية الفكر والتساهل الديني . الا ان علي رضا ، مثل السلطان مهدي ، سكوت لا يحب الظهور . وقلما يعرض فكره في غير مجلس الالفة والاطمئنان . كان من حظي ان اجالسه غير مرة ، وان له ولابن اخيه عبد الغني الرافعي فضلاً عليّ ببعض المعلومات عن ماضي لحج .

النواحي التسع المحمية

مبدأ الحياة في السياسة الانكليزية – المعاهدات الولائية – البندان او القيدان – دور الولاء والعطاء . ولا بأس بالعداء – دور الحماية . ولا بأس بالنكاية – « لنا يد على فلان في منصبه » – الصبيحة – آل الفضل او الفضلي – العوالق – قوم لا دين لهم – الواحدي – عرب يعرفون القرآن ولا النبي – العوازل – اليوافع دولتان مستقلتان – سلطان اليوافع السفلى يبغي من الانكليز زيادة في المشاهرة ولقباً ونيشاناً – سلطان اليوافع العليا لا يبغي من الانكليز غير البعد والهجران – العلوي – القطبي – الحواشب – العقارب – اقدم السلطنات واصغرها – الضالع – سياسة الامام يحيى – الشيخ الاخرم يهتدي – الزيود يطلبون المدافع ترحيباً به – الامام يقتدي بالانكليز – الولاء ثم العطاء ثم الاستيلاء .

بدأ الانكليز عند احتلالهم عدن يعقدون والعشائر عهوداً بسيطة تضمن لهم الهدنة في الاقل ريثما تجيئهم النجدات . وتدعى هذه العهود عهود صداقة وولاء . اول من عاهدهم من العرب عشيرة العُزّيبي التي هي اليوم من عشائر لحج . والمعاهدة هي آية في البساطة والايجاز . فبعد ذكر اسماء الفريقين تقول :

هذه معاهدة بين الانكليز والعزّيبي . نحن الآن اصدقاء ونتعهد بالسلم والولاء . قلوبنا وبغياتنا واحدة . الامان الدائم على عدن وعلينا نتعهد به امام الله . واذا اخذ الانكليز احداً من عشائرنا او اخذنا احداً من الانكليز فلا يؤذى المأسور او يهان .

وبعد قليل عقدوا مثل هذه المعاهدة مع اليوافع من المنطقة السفلى من بلادهم ومع الحواشب وغيرهم ، والقاعدة السياسية فيها كلها واحدة . الولاء ثم العطاء ثم الاستيلاء . فقد تدرجوا من المفاهدة ذات البند الواحد الى المعاهدات الطويلة ، وفيها كلها تجد اليوم المواد المهمة التي تقيد الامير او السلطان او الشيخ بالانكليز دون سواهم من الامم . اذ لا يحق له ان يفاوض دولة اخرى ، او يعاهدها ، او يقبل مساعدات مالية او غير مالية منها بدون معرفة بريطانيا واجازتها . كما لا يحق له ان يبيع او يؤجر او يهب او يرهن شيئاً من ارضه او ملكه لغير الحكومة البريطانية . وعليه ان يراعي موجبات السياسة البريطانية .

واذا اخلّ باحدى هذه المواد يقطعون عنه الراتب الذي شرعوا منذ ذاك الحين يخصون به المتعاهدين . كانت هذه الرواتب تافهة في البداءة تتراوح بين العشرة ريالات والمئة ريالاً في السنة الى كل امير ، ثم اخذت تزداد مع المصلحة حتى اصبحت الان تتراوح بين الخمسين والاربعمئة روبية كل شهر . اما سلطان لحج ، وهو كما تقدم اكبر المتعاهدين ، فمشاهرته تزيد على ثلاثة آلاف روبية .

هذا دور الولاء والعطاء . ولكن الانكليز كانوا يتدخلون في بعض الاحايين في شؤون اصحاب المشاهرات ليصلحوا مثلاً بين صديقين متخاصمين من اصدقائهم ، فيورثهم التدخل مسؤولية توجب عليهم الاستمرار . فيستمرون مصلحين ويكتسبون ما لا بد منه من عداء احد المتخاصمين . يقيمون الحدود بين الفريقين ، فينصبون العمد البيضاء الفاصلة ، فيجيء من لا يرضى بتدخلهم ظاناً نفسه مغبوناً فيرفع تلك العمد بل يكسرها ، فيقوم جاره الذي رضي بالصلح ،

صلح الانكليز ، ويدافع عنها ، فيعاديه ثانية ويقاتله ، ويستنصر عليه اصدقاءه الانكليز ، فيضطرون ان ينصروه بالسياسة والمال والرجال ايضاً ليعززوا في الاقل كلمتهم ويثبتوا نفوذهم . فينتج عن ذلك كله تلك الحماية التي لم تكن كما يقول بعضهم من مقاصدهم الاولى . ولكنك تذكر ايها القارىء ماكتبه مجلس ادارة شركة الهند الشرقية الى المعتمد البريطاني الاول في عدن [1] . هوذا الجسم السياسي الحي الذي يساعد في نموه الزمان .

انتقلنا من دور الولاء الى دور الحماية فاصبح الانكليز حلفاء صديقهم الامير العربي والمسؤولين عن استقلاله وسلامة ملكه . قد تطول مدة النشؤ كما في تاريخ اليوافع مثلاً الذين عاهدوا الانكليز سنة ١٨٣٩ عهد صداقة ، ولم يعقدوا معهم المعاهدة التي امسوا بموجبها تحت حمايتهم الا بعد خمس وستين سنة . وكأن النمو السياسي يوجب على الساسة اكثر مما يتعمدونه في البداءة ويرمون اليه ، فالانكليز في عدن لم يقفوا عند حد التدخل لاصلاح ذات البين بين امير وآخر . بل تجاوزوه الى التحزب السياسي الذي اشرت اليه . خذ البرهان من هذه العبارة التي تكثر في التقارير الرسمية التي يرفعها المعتمد الى وزارة المستعمرات :

« ان لنا يداً على فلان في منصبه فقد نصرناه على من كان من اسرته ينازعه الامارة » .

اما الذين عاهدوهم من العشائر وساعدوا في تقسيمهم امارات وسلطنات وبسطوا الحماية البريطانية عليهم ، فهم يقطنون البلاد التي تدعى النواحي التسع المحمية اي الجنوبية من اليمن الاسفل . وهاك

(١) راجع الهامش في صفحة ٣٩٩ ل

اسماءها وبعض ما علمته من الثقات عنها .

الصبيحـة

نحن الان في عدن . فاذا نظرنا غرباً منهـــا نرى قسماً من بلاد الصبيحة التي تمتد على الساحل من رأس عمران حتى باب المندب . والصبيحة عشائر متعددة منها العَطيفي والبرْيمي يحكمها الشيوخ والعقال حكماً بدوياً . وهم مشهورون بالغزو والغدر ، يُقدر عدد من يحمل السلاح فيهم بعشرين الفاً . على ان لا سلطان لهم ولا زعيم كبير ليجمع شملهم او بالحري شرهم . وليس لمشايخهم وعقالهم مشاهرات معلومة . لكنهم يجيئون الى عدن كل ثلاثة اشهر مرة او يرسلون اقاربهم ليقبضوا الاكراميات التي تتراوح بين الخمسين والمئة روبية ، وبعضهم يتناولها بوساطة سلطان لحج .

آل فضل او الفضلي

واذا اتجهنا من عدن شرقاً وتمثلنا امامنا مئة ميل من الارض ممتدة على الساحل من حدود العبادلة « لحج » الشرقية عند ام العُمُد الى حدود العوالق الغربية في المقاطن — والبلدتان على البحر — نحيط بملك آل فضل ، الذين هم اقوى العرب واشدهم حول عدن شرقاً بشمال منها . فان لسلطانهم عبد القادر بن حسين الفضلي عسكراً من قبيلته الخاصة ، وعنده من العشرين الى الثلاثين الفاً يحملون الســـلاح . اما عرب الفضلي فمن البدو ، وهم ذوو بأس ومروؤة ، يسارعون الى

النجدة ويرغبون دائماً في القتال ويظهر ان السلطان عبد القادر يرغب مثل زميله العبدلي في توسيع ملكه ، فقد طلب من الانكليز سلاحاً ومدافع فلم يلبوا طلبه ، والعلائق بينه وبينهم متوترة في هذه الايام . بيد انه لا يزال يقبض المشاهرة وهي اربعمئة روبية ، ولا يزالون يرحبون به بتسعة مدافع عندما يشرف عدن .

العوالق

هم جيران آل فضل على الساحل ، وبلادهم اكبر النواحي التسع ، مساحتها مئة ميل ونيف شرقاً ومثلها شمالا . وهي تقسم الى قسمين العوالق العليا والعوالق السفلى . اما الاولى فيحكم اليوم قسماً منها السلطان صالح بن عبدالله العَولقي ومركزه في الانصاب . ويحكم قسماً آخر شيخ يعادل بل يفوق السلطان صالحاً قوة ونفوذاً ومركزه يشْبوم . وهناك بلدة اسمها العِرْقة وميناء هو الحوْره يحكمهما شيخان مستقلان الواحد عن الآخر ، ومستقلان ايضاً عن شيخ يشبوم وسلطان الانصاب .

في العوالق العليا اثار حميرية كثيرة ما اكتشف غير اليسير منها وفيها مشايخ وعلماء يؤثرون المال على الاستقلال ، ويعملون في مقابلة ما يتقاضونه من المشاهرات لتوسيع النفوذ البريطاني في بلادهم . بيد ان ليس بينهم وبين عدن غير معاهدة ولاء عقدت سنة ١٩٠٣ .

اما العوالق السفلى فاهلها اصدقاء الانكليز منذ سنة ١٨٥٥ حين عقدوا معهم عهد ولاء على ان يمنع السلطان دخول الرقيق من افريقيا

الى بلاده ولكنهم مع صداقتهم للانكليز واختلاطهم ، وهم على ساحل البحر ، بالاجانب ، فلا يزالون على شيء يروع من الوحشية . وفيهم قبائل لا يعرفون الاسلام ولم يسمعوا بالنبي محمد . وهم يتزوجون بدون عقد نكاح مثل عرب الجاهلية ، وينكحون اخواتهم وزوجات ابائهم ، ولا يصومون ولا يصلون سألت مرة في دار الاعتماد عما اذا كانت السياحة في بلادهم ممكنة فاجابوا : نعم ، اذا كانت لا تهمك حياتك

ان لسلطان العوالق السفلى الحالي ابي بكر بن ناصر مشاهرة صغيرة لا تتجاوز المئة روبية . اما عدد من يستطيع حمل السلاح في هذه الناحية الكبرى فيقدر بثلاثين او اربعين الفاً . ولكن عدد من يستطيعون تجنيدهم لا يتجاوز الثلاثة آلاف

الواحدي

هم جيران العوالق شرقاً بشمال ، عاصمة بلادهم حَبّان وميناؤها المعروف بَلحاف ، وسلطانها علي بن محسن له مشاهرات وليس له مدافع تكريم وترحيب . ذلك لان عربانه البدو بخلاف عربان العوالق وامرائهم ، ينفرون من الانكليز ويحاولون التفلت من ربقة الحماية التي اوثقوا بها منذ سنين . والغريب العجيب في هذه الجهة من اليمن الاسفل ان حُبّان ، وهي بلدة قديمة ذات ماض موصوف بالعلم والادب ، ويشبوم ، وفيها اليوم عدد من العلماء ، لا تبعدان خمسين ميلاً عن العوالق السفلى التي لا يزال فيها من العرب من لا يعرفون القران والنبي . اما النواحي الاخرى فللاسلام ولسلالة النبي

السادة والاشراف مكانة عالية فيها . ولكل قبيلة سيد يسمى منصب هو رئيسهم الروحي فيأخذ منهم النذور ، ويحكم بينهم ، ويستغاث به وبكبار اجداده .

العوازل

اذا عدنا من بلاد الواحدي غرباً فاجتزنا بلاد العوالق عند الخط الرابع عشر شمالاً من خط الاستواء نصل الى الدَّثينه بـــلاد العوازل البدو ، وهي في ملتقى الاودية الثلاثة رُفوح وذُرى ومروان ، تربتها خصبة ، ورجالها اشداء . كانت الدثينة في الماضي عاصمـــة التمرد و « ديرة » العصيان ، فقد رفض العوازل الحماية الانكليزية ، وحاربوا الجنود الذين صعدوا من عدن اليهم فهزموهم وردوهم خاسرين . ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا التخلص من النفوذ الاجنبي لان جيرانهم العوالق اصدقاء الانكليز وانصارهم . قيل لي ان يوم خرجوا على السلطة البريطانية انتقم الانكليز من المقيمين منهم في عدن فاجلوهم عنهـــا بالسياط .

اليوافع

اذا واصلنا السير غرباً عند الخط الرابـع عشر من العرض وقطعنا وادي الرقوح نمر بالطرف الجنوبي من الجبال البيضاء وهي بلاد خصبة فيها بضعة انهار واهلها موالون للانكليز . ثم ندخل في بلاد اليوافـع وفيها كما يقال سبعون الف مقاتل وعدة « شيخات » ، «مشيخات» مستقلة خلا السلطنتين العليا والسفلى . اما اليوافع السفلى فاكثر اهلها من البدو وهم

منذ سنة ١٨٣٩ اصدقاء الانكليز مخلصون لهم . ويظهر ان اليوافع ثابتون في العداء ثباتهم في الولاء . فقد كان بينهم وبين جيرانهم ال فضل عداء منذ ١٨٧٣ استمر اكثر من عشرين سنة ثم بسطت الحكومة البريطانية حمايتها عليهم سنة ١٨٩٥ فازالت ذلك العداء القديم اوكادت . ولكن سلطان اليوافع السفلى محسن بن علي ناقم على الانكليز اليوم لانهم رفضوا ما طلبه من الزيادة في المشاهرة . وهو يبغي فوق ذلك لقباً يصحبه نيشان ومدافع ترحيب مثل الزملاء والجيران .

اما سلطان اليوافع العليا فضل بن محمد ومركزه الحوطة فلا علاقة له بالانكليز ولا فضل لهم عليه ، ولا هو يبغي منهم غير البعد والهجران . هؤلاء اليوافع مثل العبادلة اكثر عرب النواحي التسع ثروة وتمدناً ، فيهم من التجار من تتصل تجارتهم بالهند وبالجزائر في المحيط الهندي . وبينهم وبين العبادلة نسب وقرابة . واهل اليوافع العليا يفاخرون اقرانهم وجيرانهم باستقلالهم كل الاستقلال فيقولون : لم يدخل ولن يدخل اجنبي الى بلادنا . اما حكومة عدن فكانت قد عينت في الماضي احد مشايخ عربان الشعيب ليحافظ على عمود الحدود هناك براتب شهري قدره سبعة ريالات .

العلوي

هم من العشائر التي لم تتمكن حكومة عدن من ضبطهم واستدراجهم الى الموالين المحميين . فلم يكن بينها وبينهم منذ سنة ١٨٣٩ حتى سنة ١٨٩٥ علائق رسمية ، ولكنها كانت تدفع المشاهرات الى شيخهم بوساطة جارهم الى الغرب سلطان الحواشب . ثم عقدت معهم معاهدة

شبيهة بالمعاهدات التي عقدت مع جيرانهم . اما الحماية او الولاء او الصداقة فلا تزال اسمية .

القطيبي

وهم مثل الصبيحة قوم غزاة . كانوا في الماضي يغزون الضالع والعلوي ، ويتقاضون القوافل رسوماً ، ويقطعون عند الحاجة الطرق. ثم دخلوا في صف المتعاهدين اصحاب المشاهرات ولكنهم ابو الحماية ، ودار الاعتماد لا تركن اليهم . اما شيخهم الحالي الشيخ محمد صالح الاخرم ،شيخ بلاد القطيب والاجعود ،فقد قاوم الزيود عندما زحفوا منذ ثلاث سنوات على النواحي التسع يبغون الاستيلاء عليها كلها . ثم صالحهم لان دار الاعتماد لم تمده بالمساعدة الحربية والمالية التي كان يطلبها ، وصار من عمال الامام يحيى فخسره الانكليز . وقد يخسرون بسببه العلويين وغيرهم من المحميين .

الحواشب

جيران القطيبي ولحج والصبيحة ،فهم والعزيبي اول من عقدوا مع الانكليز معاهدات . ويحاربون مع من « يملأ كفهم قروش »[1] عندهم من الخمسة الى العشرين الف مقاتل كما يقال وسلطانهم اليوم عندهم من الخمسة الى العشرين الف مقاتل كما يقال وسلطانهم اليوم محسن بن علي بن مانع . هو الذي كان ولي العهد عندما زرنا اباه في المسيمير .

---

(١) اشارة الى الكلمة المأثورة في تلك النواحي اوردها بلغتهم : « لانا قبيلة حد ولا حد دولتي ، سلطاني من ملا كفي قروش »

العقارب

قبل ان نتقدم شمالاً اعرف القارىء باقدم السلطنات المستقلة واصغرها ، اي سلطنة العقارب ذات القبيلة الواحدة والبلد الواحد . العقارب فخذ من العبادلة اعلنوا استقلالهم في العقد السابع من القرن الثامن عشر ، اي حين اعلنت الولايات المتحدة الاميركية استقلالها . وهي مثل تلك الولايات لا تزال مستقلة عزيزة ، بل هي فريدة في بابها لا زادت عداً ولا نقصت ، ولا كبرت ولا صغرت . اهلها قانعون بقسمة الجبار فيهم ، يجمعون شتاتهم وكلمتهم في بير احمد مدينتهم الوحيدة بل بلادهم جمعاء ، فيقيمون فيها مطمئنين . وما اشبههم بين الانكليز والصبيحة والعبادلة بمملكة لوكسمبورغ بين المانيا وفرنسا والبلجيك.

الضالع

ينقلنا البحث في هذه الناحية من الجنوب الى الشمال ، ومن سياسة الانكليز الى سياسة الامام ، لانها تدخل في منطقة اليمن الاعلى ، وهي في الطريق الى صنعاء شمالاً بغرب من بلاد العلوي ، وفيها قبائل متعددة . كان يحكمها الامير نصر بن شايف الذي اجتمعنا به في لحج يوم كنا هناك لان الزيود كانوا قد احتلوا الضالع واخرجوه منها . ولا عجب اذا استعاد الامام يحيى هذه المناطق التي كانت سابقاً من ملك اجداده . قد قيل ان اجداد مشايخ الضالع من المولدين ، كان اباؤهم من عبيد ائمة اليمن ، ثم استقلوا في طليعة القرن الماضي واقاموا منهم اميراً عليهم .

قد احتل الزيود بلاد القطيب والاجعود ايضاً ، ووصلوا الى الجبال البيضاء ، فشرعوا ينشرون الدعوة الامامية وينصبون حبائل السياسة والاستيلاء شرقاً وجنوباً حتى بلاد اليوافع وآل فضل . وقد كان الشيخ محمد الاخرم اول من وقع في حبالهم ، اول من اتبع الهدى .

دعاه الزيود الى الضالع باسم السلم والامام فلبى الدعوة بعد ان خذله الانكليز كما تقدم . ولما دخل البلد اطلق الزيود من اجله ، اقتداء بحكومة عدن ، اربعة مدافع ترحيباً واكراماً ، فترنح الشيخ ورفع الادعية للحضرة الامامية بصنعاء ، فعينه الامام امير الجيش في القطيب والاجعود ، واختصه براتب شهري ، وبربع العشر من زكاة تلك المقاطعات ، وبالف قدح من الذرة ، وباربعمئة جندي من الزيود الاشاوس ليكتسح النواحي العاصية ويدخلها في طاعة الامام . ولم يكن الشيخ الاخرم ليقبض من الانكليز غير مئة روبية كل شهر .

ان حضرة الامام ، اذا ثابر على هذه الخطة ، لمن الفائزين بما يبغيه من الانكليز . فهو يقتدي بهم فيحاربهم في اليمن الاسفل بتلك السياسة التي هي عندهم رأس اسباب السيادة . الا وهي سياسة الولاء والعطاء ثم الاستيلاء . وتراه لا يقصر حتى في الجزاء والاكرام ، فيرفع الى المناصب العالية المشايخ والعقال ، ويدفع لهم المشاهرات ، ويخصهم فوق ذلك بجزء من الزكاة . اي دهاة الانكليز ، ان عندنا المدافع ايضاً نطلقها مرحبين باخواننا المسلمين ، ابناء اتباعنا الاقدمين .

لائحة

بالمشاهرات وجيوش النواحي المحمية

الراتب الشهري روبية	ما يستطيع ان يحشده من الجنود		
٣٢٨٠	٢٠٠٠	السلطان عبد الكريم فضل بن علي سلطان لحج	
٣٦٠	١٠٠٠	« عبد القادر بن حسين الفضلي سلطان شقوه	
٢٥٠		« صالح بن عبدالله العولقي سلطان العوالق العليا	
٣٥٠	٣٠٠٠	الشيخ محسن بن فريد العولقي شيخ « «	
١٥٠		« محسن بن رويس « « « «	
١٦٠	١٠٠٠	السلطان ابو بكر بن ناصر سلطان العوالق السفلى	
٢٠٠		السلطان محسن بن علي سلطان بني قاسد	بلاد يافع
٨٠		« صالح بن عمر « « ضُبي	بلاد يافع
٨٠	٣٠٠٠	الشيخ سالم بن صالح بن عاطف جابر شيخ ضبي	بلاد يافع
١٠٠		« ابو بكر علي شيخ الموسطة	بلاد يافع
٥٠		« محمد علي محسن « «	بلاد يافع
٨٠		« عبدالرحمن المفلحي شيخ المفلحي	بلاد يافع
٤٠٠	١٠٠٠	السلطان محسن بن علي بن مانع سلطان الحواشب	
٣٠٠	١٠٠٠	الامير نصر بن شايف امير الضالع	
١	٥٠٠	الشيخ محمد صالح الاخرم شيخ قبيلة القطايب	
١٠	٥٠٠	« عبد النبي العلوي « « صهيب	
٦٠٤٠	١٣٠٠٠		

ولاصحاب هذه المشاهرات اكراميات ايضاً: يتناولها بعضهم كل ستة اشهر مرة وبعضهم كل سنة، تتراوح بين الثلاثمئة والالف روبية. وهناك آخرون من المشايخ والعلماء تخصهم عدن بمشاهرات واكراميات صغيرة.

اما السلطان عوض بن عمر القعيطي سلطان مكلا في حضرموت فيستطيع ان يحشد الفي جندي، ولكن مشاهرته اسمية، وهي ستون روبية لا غير، لان آل القُعيطي ذوو ثروة كبيرة في حضرموت وفي الهند.